

وطن بلا شتاء

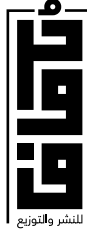
مجموعة قصصية

شيماء محمود قطيط

- وطن بلا شتاء
- شيماء محمود قطيط
- الطبعة الأولى 2018
- دار حروف للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للناشر : لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزءٍ منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكلٍ
من الأشكال دون إذن خطيٍ مُسبقٍ من الناشر .

All Rights Reserved. No part of this book may be
reproduced, stored, in a retrieval system, or by any means
without the prior written permission of the publisher.



✦ info@darhorof.com | ✦ DarHorof | ✦ www.darhorof.com

رقم الإيداع: 0845 /2018

الردمك: 8 - 13 - 713 - 9921 - 978

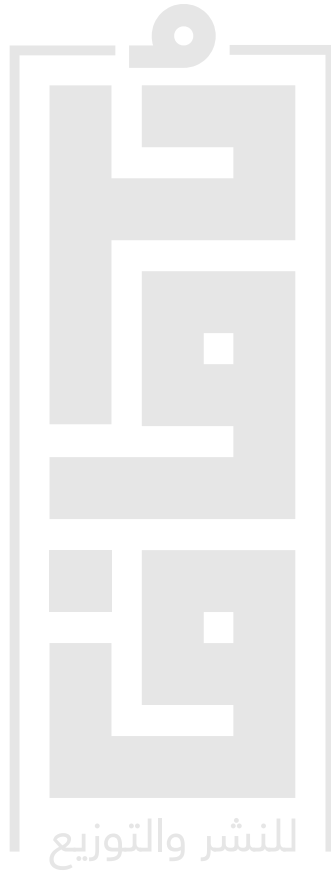
وطن بلا شتاء

(قصص قصيرة)



الفهرس

الصفحة	الموضوع
9	أوصاف
27	ثمة شيء خلف السراب
35	وهن...
47	كي تقرّ عينها
59	يلا تنام...
73	مرافئ الانتظار
81	بُعِثَتْ من مرقدِها
95	وطن بلا شتاء
105	وراء الستار
113	كأوراق الخريف
121	وانقضى الربيع
137	إكليل الياسمين
143	أبي... هل عادت أمي؟
157	طفولة مُعْتَمَة



يمكث الألم باستمرار في أعماق قلوبنا
لكن الأمر ينتهي بنا بالبقاء على قيد الحياة

غيوم ميسو

للنشر والتوزيع



أوصاف



كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عجزت عن النوم، جربت شتى الطرق لأرهق نفسي لعلني أحظى بساعات كافية من النوم، شربت الحليب بالرغم من كرهني له، تناولت بضعة كتب فإذا بي أقلب صفحاتها بسرعة لعلني أعثر على صفحة تشدني لقراءتها لكن دون جدوى، فتحت الشباك لأعد النجوم وأيضا لم تجدي هذه الطريقة أي نفع... يجب أن أنام، أشعر بضجر شديد ويبدو أن أشباح الماضي تقف خلف باب غرفتي وتصدر ضجيجا مؤلماً يمنيني من النوم.

فتحت خزانتي لأبحث عن شيء أشغل به نفسي وأطرد سيل الأفكار من ذاكرتي... لكن أول ما وقعت عيناى عليه كان ذلك الصندوق الأسود، في الحقيقة لونه بني مائل للسواد، ويبدو أن عتمة الغرفة هي ما جعلته يكتسي بالأسود الحالك، أو أن محتوياته عكست عليه شيئا من ظلمتها... لم أفتحه منذ سنوات طوال، وفي كل مرة أحاول فتحه، يفقد جسمي كله قدرته على الحركة وكأني جثة، تعجز أنا ملي عن فتح القفل، أجلس أمامه عاجزة لساعات طويلة قد تتعدى الساعتين... الثلاث... وربما أكثر، أعجز عن حسم قراري، "هل أفتح الصندوق أم لا؟"، ودائماً أخسر المعركة،

لا أقوى على مواجهة أوصاف الأخرى... أوصاف تلك الطفلة من الماضي.. كلانا نفس الشخص، لكنني جعلت منها شخصاً آخر ليس أنا، ليست ذكرياتي، ليست حياتي، حاولت جاهدة على مر تلك السنوات محو كل الماضي المرّ الذي عشته، رسمت في خيالي حياة أخرى، طفولة أخرى، وبعدها أقنعت نفسي أنها أنا. إنها ليلة سيئة، أظن أنه من العدل أن أسترجع شريط الذكريات المؤلم في هذه الليلة بدلاً من أن أفعل ذلك في ليلة أحظى فيها بمزاج جيد، هيا يا أوصاف أغمضي عينيكِ وافتحي الصندوق. - "لقد فتحتّه".

لا أصدق... لقد فتحت الصندوق !!، ظننت أنني سأستغرق وقتاً أطول لكن يبدو أن عيني المغمضتين هما ما ساعداني على ذلك. لا أشعر بشيء سوى دقات قلبي الذي تسارعت نبضاته ما أن فتحتّه، هل أغلقه وأوّل تلك المواجهة إلى موعد آخر؟...! إلى متى كل هذا التسويف والعجز عن خوض معركة حاسمة، على الأقل هذه المرة نجحت في فتح الصندوق!.

كان يحوي أشياء كثيرة، منها ألبوم صوري، حذاء وردي صغير، ودفتر يوميات كنت قد دونت عليه أحلامي المستقبلية.

بيدين ترتعشان أمسكت ألبوم الصور القديم، سقطت عيناى
على بضع صور لى عندما كنت طفلة، تأملت صورة تلك الفتاة
التي كنت عليها منذ سنوات طوال... أمعنت النظر فى تفاصيلى
وفى ابتسامتى، لقد تغيرت كثيراً... لم أعد أشبه تلك الطفلة التي
أتأملها فى الصورة... تغيرت ملامحى... ابتسامتى... ونظرتى
للحياة.

أمعنت النظر فى وجهى فقط، تجاهلت الجزء السفلى من
الصورة، أو بالأحرى أخفيته بأصابعى، لفظت أنفاسى ونظرت
للصورة كاملة... نظرت إلى قدمي، إحداها أصبحت جزءاً من
الماضى، ظلّت فى تلك الصورة التي بين يدي، وأبت أن تغادرها
وتكمل معى رحلة المستقبل، أما الأخرى، فقد أرهقتها كثيراً، بها
لوحتها أتوكأ على أعباء الحياة.

بالرغم من يقينى بأن نشغل عقلنا بالذكريات الجميلة كي ننسى ما
هو مؤلم وحزين، إلا أنه فى بعض الأحيان قد تكون لحظتنا الجميلة
التي عشناها فى ماضٍ بعيد مؤلمة حد الفجعية، أقصد اللحظات
التي جمعتنا بأشخاص من الماضى وظلوا فى الماضى، قد أبدو
مجنونة إن قلت: نعم لقد مزقت كل صور عائلتي وأحبائي الذين

أخذتهم الحرب مني إلى السماء... حاولت أن أنسى الأيام التي قضيتها برفقتهم، أن أنسى وجوههم... تفاصيلهم... ضحكاتهم، وفي لحظة ضعف مزقت كل صورهم، وكل الصور التي جمعتني بهم، واحتفظت فقط بوضع صور لي قبل أن أفقد قدمي... بقيت وحدي في الصورة، كحالي الآن غادروا هم وتركوني بمفردي، فتلك الذكريات وإن كانت جميلة، لكن يبقى جمالها هو ما يقتلنا، فالتشبث بالماضي يئدنا ونحن على قيد الحياة.

لا زالت تتنابني الكوابيس.. إنها كوابيس مختلفة تماماً عن تلك التي تراود باقي البشر، ظاهرها جميل، وباطنها مروع، أحلم بأن قدمي قد عادت من جديد، أحلم بأن كل تلك الحرب كانت كذبة وأنا لم أفقد أسرتي يوماً، بالرغم من جمال تلك الأحلام إلا أنها كانت تترك غصة موجعة في قلبي لحظة استيقاظي، تعيدني إلى دوامة الحزن الذي حاولت مراراً تناسيه.

-”يكفي هذا الليلة، سأكمل غداً أو في وقت آخر“.

أغلقت الصندوق، وتجاهلت المحتويات الأخرى، وأعدته إلى مكانه. دسست نفسي تحت غطاء الفراش حاولت أن أردد بضع كلمات وأظل أكررها، كانت تلك حيلتي التي استخدمها عند كل

مرة يرهقني التفكير بأمر معين وينتزع مني نومي لأشتت عقلي وأصرف تفكيره بأمر آخر، قد أنجح في ذلك وفي مرات كثيرة استسلم وأفشل، نجحت هذه المرة، وغرقت مباشرة في النوم، لكن على ما يبدو أن جسدي المرهق هو من استسلم وحده للنوم، أما عقلي فأكمل ما بداته هذه الليلة.

لقد بدأ وقت الكوابيس، لكنها هذه المرة مختلفة، هذه الليلة استحضرت الجزء المؤلم، الجزء الذي حاولت جاهدة ألا أتذكره، لكنني الآن نائمة أعجز عن السيطرة على تفكيري، الأمر خرج عن نطاق إرادتي، حاولت الهرب من حلمي لكنني غائبة عن الوعي أشعر وكأن جسمي مكبل، حاولت أن أصرخ، خرج مني بضع صرخات مكتومة، بذلت كل ما في وسعي فلم أجد صوتاً، لم أستطع فعل أي شيء.

ركبت هذه الليلة آلة الزمن، عدت للماضي، تحديداً إلى الثامن عشر من أيلول قبل عشر سنوات، كان يوماً مختلفاً، يستعصي على أي بشر رؤية ما واجهته، عدت للحرب من جديد، عدت إلى بيتنا قبل أن تحوله قذائف وأسلحة العدو إلى حطام ينهار فوق أجسادنا، عدت إلى حضن أمي، تراءت لي خيالات أبي وإخوتي، أعادت

أمي وصيتها الأخيرة عليّ ”ابقي في هذه الزاوية ولا تتحركي“، لكنني كعادة الأطفال تجاهلت نصيحتها وتحركت قليلاً وهذا ما أفقدني قدمي، لو سمعت كلامها وقتها لربما لم أفقد قدمي يوماً. كنت أرتدي في الحلم حذائي الورددي، أو ”حذاء سندريلا الورددي“ هكذا كنت أسميه، لا زلت أحتفظ به في ذلك الصندوق، في الحقيقة لم أرتديه يوماً، أهداني إياه أبي، ورفضت أمي أن تلبسنيه بحجة أن قدمي صغيرتان، وكنت أنتظر بفارغ الصبر اليوم الذي تكبر فيه قدماي لألبسه، ويبدو أن سندريلا في حكايتي أنا فقدت قدمها بدلاً من حذاءها.

شعرت بنفس الألم الذي شطر قدمي إلى جزأين، في البداية لم أشعر بشيء لكن عندما شاهدت شلال الدم المتطاير من قدمي المبتورة سرى تيار الألم في جسدي كله.

ترأت لي أطياف عائلتي لحظة وداعهم الأخير، عايشة ألم موتهم أمام عيني مرة أخرى.

- هذا ليس عدلاً!! لم أتشاف من المرة الأولى، واليوم يتكرر ذات المشهد، ويجعلني أتجرع وجع اليتيم ثانية.

تجسدت الحرب في حلمي على هيئة شبح أسود كبير، لم أستطع

تميز ملامحه سوى عروق عينيه الدمويتين، أخافني جداً منظره،
أخفضت رأسي كيلا أراه، وراح يسلب أحبتي فرداً فرداً، سمعت
صوته يقترب مني... حاولت أن أصرخ... أن أهرب... فإذا برنين
منه صلاة الفجر ينقذني.

لا أدري كيف رتب الحلم نفسه ليتزامن موعد نهايته الموجهة
مع رنين المنبه، فزعت من نومي، وتلاشى الكابوس كغيمة سوداء
جرتها العاصفة إلى مكان بعيد.

بعد استيقاظي، ظللت ارتجف قرابة ربع ساعة، أو ربما أكثر،
عجزت عن إبداء أية حركة أخرى، وكأن جسمي تحت تأثير عقار
ما، تسارعت أنفاسي ونبضات قلبي، شعرت أن حجراً ثقیلاً يعصر
رأسي، أما قدمي المبتورة فقد عاد الألم إليها من جديد... كان ذلك
أكثر من كابوس أرهق جسدي وعقلي.
- "إنه فقط حلم مزعج".

هكذا حدثت نفسي، حاولت أن أقنعها أنه مجرد كابوس، لكن
لا... إنه الماضي... استرجعته الليلة بكامل تفاصيله... يأبى أن
يفارقني مهما حاولت الفرار منه.

توضأت واصلت الفجر، وبعدها جلست على سجادتي ساعة

كاملة أبكي... شكوت بثي وحزني إلى الله... بكيت كل همومي وآلامي... سألت الله فرجاً قريباً من كل ما أمر به، مدّني حديث الفجر هذا بالطمأنينة والسكينة، فوحده الله من كنت أحدثه عن كل ما ضاق به صدري.

لم يكن هناك شخص أتقاسم معه وجعي أو يخفف عني حمل قلبي الذي أثقلته الهموم، فنحن لا نعلن أوجاعنا للآخرين، بل ندعها تنمو داخلنا فتقتلنا بصمت.

في الحقيقة لم أفكر يوماً في زيارة طبيب نفسي، مع أن جدتي وأقربائي نصحوني أكثر من مرة، لكنني لا زلت أصر أنه لا جدوى من ذلك، وأتظاهر بالتحسن عند كل مرة يلمحوا فيها إلى ذات الموضوع، يظن البعض بأن البوح بالآلامك لغريب قد يشفيك، لكنني ما زلت مصرة بأن لا أفتح مذكرات الماضي، ولا أن أنبش قبور الراحلين، فقد احتجت سنوات طوال لأللم ذاتي وأتناسى ما حصل.

بمرور الوقت يتغير كل شخص منا... إنها تلك اللحظات الموجعة ستغيرنا شتاً أم أبيعنا، نعم... لقد تغيرت كثيراً، لم أعد أعرف نفسي، انفصلت عن الواقع، وعن المستقبل، وحبست نفسي في زنزانة الماضي.

لطلما تساءلت ”أي نوع من الحياة هذه التي أعيش؟“ .
أعيش في دوامة من الحزن والفراغ، أحبس نفسي داخل قوقعة،
فقدت الإحساس بحياتي، وفقدت قدرتي على التمييز بين الأيام
والتواريخ، فكلها باتت متشابهة بالنسبة لي، أقضي معظم وقتي في
القراءة، أظل أقرأ لساعات طويلة، وأبقى جلسة سريري بالكاد
أغادره، أعيش في عزلة عن البشر، اكتفي بإلقاء تحية عابرة عندما
أصادفهم، ما من رغبة لي في مخالطة أحد أو الحديث معه.
لم أعد أفهم نفسي، لم تعد لدي أية أحلام، بت موقنة أن
الأحلام مقتصرة على الأطفال... وأنا في الحقيقة نكبر على
الأحلام تماماً كما كبرنا على الدمى والألعاب... فليس من المنطق
أن نرسم في خيالنا حياة أخرى وآمالاً كثيرة... لنستيقظ ونحن
موقنون بأننا لن نحقق شيئاً من ذلك... وأنا بعيدون كل البعد عن
أحلامنا... فمن الأنانية أن نشغل عقلنا بما هو أقرب للخيال وننسى
التفكير بما هو حقيقة... ننسى التفكير بالواقع الذي نعيشه...
ربطت واقعي ومستقبلي بذكريات الماضي المؤلمة... شعرت أن لا
معنى لحياتي دون عائلتي... ودون قدمي... شعرت أن أحلامي
أيضاً رحلت معهم...

- "يجب أن أنام سأصاب بالجنون إن ظللت أفكر" قلتها وأنا غارقة في نوبة من البكاء.

حاولت جاهدة أن أكمل نومي لكنني لم استطع، لا بد أن أنام ساعات إضافية لكن هذه المرة دون كوابيس.

ظللت على هذا الحال قرابة أسبوع، جافاني النوم أبى أن يزور مقلتي، وبقيت عالقة بين مرحلة النعاس وما قبل النوم، تلك المرحلة التي تكون في عداد النسيان عندما نستيقظ، لا أحد منا يشعر بها أو يعرف متى دخل بها، لكنني شعرت بها هذه الفترة مرات عدة، وهذا ما جعلني أصاب بالجنون، فلم أكن نائمة ولا مستيقظة، أشعر بثقل يمنيني من أن أفتح جفوني، وفي ذات الوقت تدور داخل رأسي صراعات واعية تكاد تجعلني أبكي أو ربما أصرخ، وفي كل مرة كان يستسلم فيها جسدي المنهك للنوم، يبدأ وقت الكوابيس.

ظلّ طيف "شبح الحرب الأسود" يزورني، وحاول مرات عدة أن يسلبني حياتي، وظلت خيالات عائلتي تتراءى أمامي من حين إلى آخر، وكانت أوصاف الطفلة تقبع في زاوية من غرفتي، تجلس وحيدة وترمقني بنظرات موجعة، كدت أرميها بوسادتي لكن خيالها كان يتلاشى ويعاود الظهور ثانية.

فكرت بالموت هذه الفترة كثيراً، أقصد بذلك أنني تمنيت الموت
مرات عدة، بالرغم من أنني تمنيته إلا أنني كنت أخشاه.

توجهت إلى الحمام غسلت وجهي بضع مرات لأستعيد وعيي،
نظرت إلى المرأة، أبصرت وجهاً مختلفاً عن الذي أعرفه، أصبحت
ملاميحي أكثر حزناً ووهناً، واكتست جفوني بالسواد، وعقدة بين
حاجبيّ نبتت وكبرت حتى شقت جبهتي، شعرت وكأنني عبرت
الزمن خمسين عاماً، فالأحزان تجعلك تتجاوز سنين من عمرك،
قلبك يشيخ دون جسدك، لقد هرمت في داخلي، هرمت عندما
كنت في العاشرة من عمري، أي قبل عشر سنوات من الآن، كان
من المفترض بها أن أنهى طفولتي وأعيش مراهقتي وأبدأ مرحلة
شبابي...

-“يكفي... يجب أن أضع حداً لكل هذا“. قلتها بتحدي وأنا
أنظر لوجهي في المرأة.

قررت أن أكسر قفل سجنني وأخرج إلى هذه الحياة ثانية... وأن
أخلع ثوب الحداد عني... فقد استنزفت الأحزان عشر سنوات من
عمري... قررت اليوم أن أواجه الماضي...

ارتديت سترتي وحملت معي الصندوق الأسود ” أو البني

القاتم“ ، وقررت أن أذهب إلى بيتنا، أوقفتني جدتي وسألتنني إلى أين أذهب.

-إلى بيتنا.

-!!؟؟؟-

-أقصد ما تبقى من ركام بيتنا.

-هل ترغبني بأن أرافك؟

-لا... أريد الذهاب بمفردي.

لم أرغب أن أحمل جدتي فوق طاقتها، مسكينة هي الأخرى فقدت ابنتها وأحفادها -أي أمي وإخوتي- ، بالكاد تتظاهر بالقوة أمامي، فقد أقفلت الباب على حزنها، وارتدت قناعاً بلامح زائفة لا يعكس الضجيج الذي بداخلها، وحاولت مراراً أن تخفي عني مشاعرها الحقيقية، لكنني دائماً كنت أشعر بها وبحجم فقدها.

ركبت السيارة وتمنيت لو أن الطريق أطول، لألملم الفوضى المتناثرة في دواخلي، وأسيطر على دقات قلبي الذي كاد أن يقفز من صدري، كانت المسافة تستغرق نصف ساعة عن بيت جدي وجدتي.

-لقد وصلت !!-

نزلت من السيارة وتوجهت إلى ركام منزلنا، تعثرت في مشيتي أكثر من مرة، مشيت بقدم بشرية أسند كل ثقلي عليها، والأخرى بلاستيكية وظيفتها توازن جسدي لا أكثر، وعندما اقتربت بدأت أشعر بالخوف، رعشة سرت في كل عروق جسدي، وكانت عيناى مصوبتين نحو الأرض في شرود ، ولأول مرة في حياتي يسود الصمت ذاكرتي.

كانت أوصاف الماضي تنتظرني هناك تجلس حزينة ووحيدة بين الحطام، فتحت الصندوق وأخرجت الحذاء الوردى، اقتربت منها وناولتها إياه وراحت تلبسه بفرح وكان هذه المرة على مقاسها، ثم أخرجت لائحة أمنياتي المستقبلية التي دونتها في صغري، وقطعت على نفسي عهداً بأن أحققها، صافحتني أوصاف مودعة، وراحت تركض نحو المغيب، التفتت لمرّة أخيرة، لوحت بيدها نحوي ثم توارت مع الغروب.

ودّعتها وودعت معها جزءاً منى كان عالقاً في الطفولة، وتحررت منه. أغمضت عيني، قذفت خلفي كل تلك الكوابيس، تلاشى خيال "شيخ الحرب الأسود"، وأصبحت كوابيسي مجرد سراب اختفى مع غروب الشمس، لم يعد هنالك شيء يخيفني، ولأول مرة من

حياتي شعرت بأنني استحق أن أعيش حياة أفضل وأن أحيا بسلام،
فمهما طالت حياتنا يظل لا معنى ولا قيمة لها إن لم نشعر بأننا
بالفعل نحيها.

انقضت عشر سنوات كان من المفترض أن تكون مدة كافية
لتجاوز ما حصل، ولتخطي حزني وأزمتي النفسية، كان ينبغي أن
أطوي صفحة الماضي من ذاكرتي، فأبرمت مع ذاتي هذا المساء
معاهدة على أن أتخطى ما عايشته، وأن انتشل نفسي من دوامة
الماضي، فأنا من جعلت من حياتي بئسة بنظرتي القاصرة لها.
في الأمس فكرت بالموت كثيراً، الموت الذي سلبني أحبتي،
لكن اليوم أيقنت أنه عليّ أن أحيا لأجلي ولأجلهم، ينبغي أن
أبصر الوجه المشرق من الأحداث، وأن أتخذ القرار بأن أغير مسار
حياتي، حتى وإن خاننا الماضي، ما زال هناك مستقبل سيكون أجمل
إن أردنا ذلك.

منحتني هذه الزيارة إحساساً جميلاً... بأن أحيا ولا أبالي
لشيء... شعرت بنسمات من الأمل تتسلل إلى روحي... الأمل
الممزوج بالألم...

ثمة جزء مني لم يكن يعاني كنت بحاجة لهذه الرحلة كي

أعثر عليه... تأكدت أن العمر يمضي وأن الموت الحقيقي هو عدم
الشعور بلحظاته الجميلة... تلك اللحظات التي تمنحنا فرصاً ثمينة
للإحساس بجمال هذه الحياة.
”فعلى هذه الأرض ما يستحق الحياة“.

للنشر والتوزيع



ثمة شيء خلف السراب



في دقائق قليلة... ظل واقفاً وكأن ساعة الزمن توقفت... أو أن قلبه توقف في تلك اللحظات التي من المفترض بها إما أن يبكي منهزماً... أو أن يحاول أن يقاوم ويدافع عن أغلى ما يملكه... وقف يشاهد بيته الذي أفنى عمره وجسده في بناءه كيف تحول بدقائق قليلة إلى حطام وتراب... هو ليس مجرد حجارة أو جدران ضمته هو وأسرته لسنوات طوال... هو... جزء من قلبه... انتزع منه في تلك اللحظات... ولن يسد مكانه أي بيت آخر... حتى ولو كان قصراً من ذهب...

مع كل جدار كان يسقط... كانت تسقط ذكرى جميلة له في ذلك المنزل... في لحظات معدودة... استرجع شريط حياته كله... وتذكر كل يوم مرّ عليه في ذلك المكان... تمنى لو يرجع الزمن قليلاً...

لقد تم هدم البيت بالكامل... وقد دفنت كل ذكرياته وأحلامه تحت ركامه... عندها سقطت دموعه... وسقط هو على الأرض... إنها الأرض التي جعلته صامداً أمام ذلك الكابوس المفزع... إنها الأرض التي من أجلها ضحى بيته... وسيكون مستعداً بأن يضحي بأكثر من ذلك... فلا شيء أغلى من الوطن... ولا وطن كفلسطين...

نسجت الشمس آخر خيوط هذا اليوم من أيام تموز الحارة...
ظل عبد الرحمن محدقاً في السماء لوهلة... وقد خيم الصمت
ذاكرته... وكانت أصوات صامته تنبعث من داخله لتصدر ضجيجاً
مكتوماً كان واضحاً على عينيه...

استفاق من غفلته... وحدق في ركام منزله... وفي وريقات
الجوري التي لا يحركها نسيم... وفي أغصان شجر الزيتون الذي
كان قد غرسه بأنامله... وفي شجرة البلوط اليتيمة التي انهار جزء
منها مع المنزل... وكيف أن سرب الحمام الذي كان قد اتخذ من
سطح منزله ملجأً له رفض أن يغادر ويتخذ مأوى آخر له... ظل هو
الآخر مستقراً فوق الحطام... وظل متمسكاً بتلك الأرض...

فجأة صار المكان موحشاً... وقد خيمت رائحة رذاذ ذرات
الغبار على رائحة دخان الطابون... وعلى عطر براعم الليمون...
وعبق زهر الياسمين... وحده ذلك البريق المتلألئ في عينيه كان
يروى قصة كل شبر في هذا المكان... أما الآن فقد انهار كل شيء...
تبددت كل الذكريات... وتناثرت الأحلام كعقد تبعثرت حباته...
قاطع سكونه شهيق زوجته الباكية... اقترب منها... فاضت
الدموع من مقلتيها.. غرقت في بكاء مريّر كطفل تائه فقد والديه

وسط الزحام... جلس منكسراً مسنداً رأسه بين يديه بالقرب من
منها ومن أطفاله الخمسة... كان منظرهم سوياً يجسد لوحة فنية
صامتة لأحد أشهر الرسامين... فقد ارتسمت نفس المعالم على
وجوههم... واكتسى الجمود حركتهم... وكان المكان من حولهم
يضيء ألوان كئيبة تشد أي ناظر إلى تلك اللوحة...

نظر إلى زوجته متأملاً هطول الدمع من عينيها... وقال لها:
فكري بالأسوأ يا فاطمة.

-الأسوأ!! نحن في الشارع... ما الأسوأ من أن نفقد بيتنا...

-نحن جميعنا بخير والحمد لله لم يصب أي منا بمكروه.

-“الحمد لله”. أجابت متتجة.

-لا بأس أن تبكي... لا تخجلي من أن تظهرى حزنك... جربي
الصراخ بكل جوارحك... علّ ذلك يخفف من حمل قلبك.

اقتربت منه ابنته نرجس... أصغر أبنائه... هي لم تدرك بعد
مأساة ما حصل... ولعل مشاهد هدم البيوت المتكرر في حيّهم
جعل من الأمر طبيعياً بالنسبة لها...

جلست واثكأت على إحدى ساقيه... وطلبت منه أن يلعب
معها تلك اللعبة الغبية بنظره والتي لم يفهمها يوماً.

- حجرة... ورقة... مقص.
- أنا حجر أنا أقوى منك.
- "لا... أنا أقوى". أجابته الصغيرة.
- كيف؟؟ المقص لا يهزم الحجر!
- "المقص من حديد والحجر من تراب". أجابته نرجس بتحدي.
- صحيح... ولكن يظل الحجر أقوى.
- لا!!!!!!.

كان يتجنب البدء بنقاش مع أي صغير... لأنه يدرك جيداً أنه من الصعب إقناعهم بشيء... نظر إلى السماء قليلاً واكتفى بقول: الحجر هو ما جعل فلسطين صامدة لأكثر من ستين عاماً، ثم نظر إلى نرجس وأكمل كلامه: لذلك لا أظن أنه يوجد أقوى من الحجر... سكتت الصغيرة قليلاً... ولعل ذلك يشير إلى أنها اقتنعت بكلام أبيها هذه المرة، المميز في أطفال فلسطين أنهم يعرفون تماماً معنى الوطن... يدركون أن كل هؤلاء الذين يضحون بأنفسهم يحملون على أكتافهم حلم النصر... ويشقون أولى خطواته ليكملها جيل آخر من بعدهم... هم يدركون جيداً بأن الوطن أغلى من كل شيء... أغلى من البيت... من النفس... من الابن... وأن الحجر

هو سلاحنا الأقوى والأوحد... وبه سنرمم ما انكسر... وسنبني ما
هدم... سنعبّد أول عتبات النصر... وبه سنشق أول خطواتنا نحو
الحرية... ونعيد كل شبر سُلب من وطننا...

لم يمض وقت طويل حتى نهض عبد الرحمن من مكانه، وأسدل
الستار على حزنه، بدا أصلب مما كان عليه قبيل لحظات، وملامحه
غدت أكثر قوة وإصراراً، مع أن أعماقه كانت مهشمة إلا أنه حاول
جاهداً أن يخفي ألمه لأجل أطفاله، ولأجل وطنه.

انتزع رداء الهزيمة والانكسار عن نفسه، ترك كل أشرطة الماضي
خلفه، وقطع على نفسه عهداً بعدم النظر إلى الخلف والحسرة على
ما مضى، وأن يطوي تلك الصفحة ليبدأ من جديد، عزم على أن
يوصل السير حتى النهاية...

لولا بصيص الأمل الذي كان يترأى له من فينة لأخرى... لما
نهض من مكانه... وربما لظلّ جالساً عمراً يبكي مأساته...
عندما ينهار الجدار نرى الأشياء التي تستتر خلفه... كان هناك
شمس سطع بريق نورها كان لا بدّ من أن يهدم شيء لنبرها...
وكان لا بدّ من إزاحة ما كان يحجبها... وكان خلف كل ذلك
السراب والألم حلماً ظل يتلأل أمام عينيه...

شمرّ عن ساعديه ليبدأ من جديد...
سيعيد بناء بيته... وسيلملم ذاك الركام حجراً حجراً...
سيغرس سرباً من الزيتون هنا... وسرباً من الليمون هناك...
وسيسقيهم بماء جبينه...
سيعيد بناء الذكريات... سيرمم الأحلام التي أوشكت أن تتبدد...
سيجلس تحت شجرة البلوط ويشرب القهوة هو وزوجته كما اعتادا
كل صباح...
سيحكي لأطفاله يوماً حكاية نصر ستروى عبر الأجيال لا
محالة...

وهن...



استيقظت بثينة قبيل طلوع الصباح بلحظات... كانت قد وضعت طفلتها الثالثة بالأمس...

بدت بثينة ذابلة... خائرة القوى... منهكة حد الأنين... عيناها متفختان... وجنتاها متوردتان... شفتاها متيستان... ويضع كدمات زرقاء انتشرت بكلتا يديها من أثر وخز الإبر... كانت تبكي... شعرت وكأن سكيناً يغرس في صدرها مرات عدة...

رأت خياله من بعيد... اقترب منها... جلس بمحاذاة رأسها... وأخذ يمسح على شعرها ويمسك يدها... يلتفت إليها يتسهم... يعتذر عن ماضٍ مرير... عن سبع سنوات من الزواج لم تكن كما تمت... لمحته يحمل طفلته بين ذراعيه... يضمها ل صدره... يقبل يديها... ويهمس في أذنيها بضع آيات قرآنية...

لكن... سرعان ما تلاشت تلك الصورة... وتلاشى معها بقايا آثار المخدر من جسدها... واستيقظت على واقع كان غير ذلك... للممت بقايا قواها ونهضت من السرير تجر خطاها الباردة بصمت... سيل من الدمع انهمر من مقلتيها أعادها إلى سجن ذكرياتها المريرة... نظرت إلى الوراء قليلاً... إلى حزنها وأوجاعها

السرمدية... كان الحزن قد بلغ حدّه... وكانت عينها المتورمتان
تشيان بانكسار عميق... وبات ذاك الشحوب لا يفارقها... فقد
كانت ذابلة وشاحبة كمن حانت ساعة احتضاره...

وقفت واستندت على الجدار بجانبها... تحتضن نفسها
وتواسيها... ما من أحد يشاركها دموعها... وكانت صامتة لولا
ذاك النحيب داخلها... لولا بركان الألم المتفجر في أعماقها...
نظرت من وراء زجاج غرفتها إلى حشود الناس المتكدسة في
الخارج... بحثت عنه بين كل الوجوه فلم تجده... وعادت إلى
حييتها وحزنها ثانية...

كانت على يقين لا يتزعزع بأنه "لن يأتي..."
لم يكن بجانبها بالأمس عندما كانت عالقة بين الحياة والموت
بعد إجراءاتها عملية قيصرية إثر ولادة مبكرة... لم يكلف نفسه
السؤال عنها أو عن طفلته ولو باتصال عابر لن يكلفه من وقته
وكرامته شيئاً...

لقد تركها في ذلك الصباح الخريفي... في عيادة طبيبتها...
بعد أن تلقت خبر حملها بطفلتها الثالثة... كان وقعه عليها أشبه
بالصاعقة... ظلت ساكنة ومتسمة مكانها... وظل وجهها مسوداً

وهو كظيم... وأخذت تتواري من سوء ما بشرت به... أتمسكه على
هون... أم تدس نفسها وما بأحشائها تحت التراب...
كانت تدرك معنى ذلك تماماً... أن ترزق بأنثى للمرة الثالثة
وليس صبي...

ما ذنبها إن رزقت بثلاث فتيات وظلت عقيمة الصبي...
أما هو... فلم يتقبل فكرة أن يصبح أباً لثلاث فتيات... لقد طال
انتظاره... سبع سنوات... وربما يطول أكثر...
طلب من الطيبة إجراء عملية إجهاض... غدا من المستحيل أن
يتقبل فكرة انضمام أنثى جديدة إلى العائلة... وبعد عدة نقاشات
عقيمة... رفضت فيها الطيبة إجراء عملية إجهاض في الشهر
الخامس وحاولت مراراً أن تبرر له خطورة ذلك... ورفضت فيها
بشينة التخلي عن طفلتها... وهناك... تلقت بشينة كلمات طلاقها...
لم ينتظر حتى عودتهم إلى المنزل... امتهن كرامتها أمام الملاء بحجة
غضبه الذي لم يكن يستطع السيطرة عليه... من حقه أن يغضب...
أما هي فلا بأس أن تمتهن كرامتها وأنوثتها أمام الجميع... هو لديه
مشاعر... أما هي فلا !!!

غدا من المستحيل تراجعه... وكان من المتوقع أن تلحق به وتعتذر له... لكنها لم تفعل ذلك هذه المرة...

بالرغم من تعليمه الجامعي العالي... إلا أن عقله ما زال مسمماً بتلك الأفكار الجاهلية... فلا تعليم ولا غيره نجح في طمس ذاك الجهل من جمجمته... أما تعليمها هي قد جعلها تتحرر من سجن أفكارهم البالية... التي ما انفكوا يدسوها في عقلها... جعلها تؤمن بأقدار الله واختياراته وتستقبلها بيد شاكرة وقلب راض...

غادرت العيادة بعد تلك الحادثة منكسة الرأس تجر خطاها... وظلت إثرها طريحة الفراش عدة أشهر... وانتهى بها ألمها وحزنها إلى ولادة مبكرة...

مرت الساعات عليها ثقيلة وهي غارقة في بحر أفكارها... تعد الدقائق والثواني... غرست وجهها في وسادتها... وغرقت في نشيج مؤلم تكاد تختلف له أضلاعها...

وحدها... لا يد تمسح على رأسها... وما من أحد يشاظرها حزنها... حتى أمها تركتها وهي أحوج ما تكون إليها... فالجميع حملها مسؤولية ما حصل... ما ذنبها إن لم ترزق بصبي... هي ربما

ليست بحاجة إليه... ليست بحاجة إلى نسخة مطبوعة عنهم...
وربما يحمل نفس أفكارهم المسمومة...

ظلت أمها في البيت ترعى طفلتيها... واكتفت بالاتصال
بها بين فينة وأخرى للاطمئنان على صحتها... وكانت تلح عليها
الطلب بأن تتصل بزوجها للاعتذار منه... وتحاشت في جميع
مكالماتها السؤال عن حفيدتها الجديدة التي بنظرها صيرت حياة
ابنتها إلى جحيم...

تلك الأم التي حاولت جاهدة أن تغرس فيها الجبن والوهن...
لكن تلك البذور كانت عقيمة... أو أنها لم تحسن سقايتها... فقد
تمردت ابنتها... وخلعت عنها رداء الضعف والوهن... لكنها كانت
تضعف في بعض محطات الحياة...

قاطع شرودها الصوت المنبعث من محمولها... كانت تستمع
إلى القرآن... واخترق مسامعها قوله تعالى: "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ
فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا" ... عبرت تلك الكلمات فؤادها... وبثت فيه شيئاً من
السكينة والطمأنينة... وكأنها رسالة من السماء... جاءت لترت
على كتفها وتمسح على رأسها وتهدي من اضطراب قلبها...

جثت على ركبتها... واستقبلت القبلة بقلبها ومدت يداها نحو السماء...

سألت الله أن يفرغ عليها صبراً وتوسلت باسمه الرحمن... أن يرحم ضعفها وقلة حيلتها...

علمت بأن لها رباً رؤوفاً رحيماً سيرحمها هي وبناتها الثلاث برحمته التي وسعت كل شيء...

مشيت بخطى متثاقلة وذهبت لرؤية طفلتها... حدثت من خلف الزجاج في ذلك الجسد الصغير... في السوار الوردي الكبير حول معصمها... في الأسلاك المغروسة في رثيها... وفي جسدها الأرجواني المشبع بخطوط مزرققة... كان قلبها يأخذ بالصعود في قمة مرتفعة ثم يهبط كاشفاً عن أضلاع صدرها... وكانت تتنفس برئة لم يكتمل نموها بعد...

تلك الطفلة ستسأل "بأي ذنب تركت؟"...

كانت ستوآد قبل أن تبصر النور... ما الجرم الكبير الذي ارتكبته تلك الصغيرة لتعاقب كل هذا...

تذكرت أنها لم تنتق لها اسماً بعد...

أسمتها "نور"... كانت هي النور الذي اهتمت إليه بعد

أن كانت تتخبط لسنوات طوال في ظلمات الجهل والوهن... هذه المرة اختارت الاسم بنفسها... لم تترك القرار لأي أحد آخر... هي من حملت الطفلة بأحشائها سبعة أشهر وعانت آلام المخاض وحيدة... فهي أجدر بذلك...

بدأت بثينة هذه المرة صلبة ومتماسكة، لم تعان من كآبة ما بعد الولادة كالمرات السابقة، فقد أدركت أنه السبب في حزنها وتعاستها، وليس الأمر مجرد اضطرابات هرمونية وتغيرات فسيولوجية كما تشخصه الطبيبة كل مرة، فقد كان هو الداء الذي سرى في أوصالها... كسرطان دبّ في أعماقها... وبدأ يفقدها شعرها... ويسلبها أنوثتها... ويجعلها تموت بين طيات الحياة مراراً... وكان ذلك السواد الذي أحاط مقلتيها وسلبها نضارة شبابها... الصداع الذي أصبح جزءاً من يومها... وكان ذاك الحميم الذي يصهر أمعائها كل ليلة... ذاك الخدران الذي يسري أطرافها بعد عناء يوم متعب...

اهتدت هذه المرة إلى أنها لن تغفر له... لقد غفرت كثيراً في حياتها واستنزفت كل إنسانيتها وكرامتها... فكلما نشب خلاف بينهم تعتذر هي... فقد اعتادت أن تعتذر دائماً حتى عندما يخطئ هو...

لكن... هذه المرة لن تعتذر... لن ترمقه بنظرات الانكسار... لن
تجثو على ركبتيه باكية ومتوسلة، وهو كعادته يتجاهلها ويتحاشى
النظر إليها... هذه المرة لن تستسلم وترفع رايتها البيضاء... فقد
غدت مختلفة... فكل تلك الخييات جعلت منها شخصاً آخر...
أنضجتها وسلبتها رقتها... جعلتها قاسية ومتمردة... فقد تعبت
من توسلاتها ونحيبها... ونشيح صوتها المنكسر... اختارت أن
تكمل ما تبقى من حياتها بعيداً عن مراسم الخيبة والخذلان...
نفضت أعماقها من بقاياها... ربت تلك الفوضى العارمة
التي اجتاحت عقلها...
نفثته عنها ثلاثاً... طردت طيفه من ذاكرتها... انتزعت بقاياها
من قلبها... وشرعت تداوي جروحها... وتتشل نفسها من غرق
بات وشيكاً لتعود إلى الحياة ثانية...
أفرجت عن ابتسامتها... واستعادت نفسها القديمة التي كانت
قد فقدتها منذ أمد بعيد...
- "سأكمل المشوار وحدي... سأقطع الدروب وحدي"...
اختارت لنفسها الطريق دونه... فكل دروب العودة باتت هذه
المررة مقفلة... وبات تراجعها مستحيلاً...

هذه المرة لن تعود إليه صاغرة وخاضعة لسلطته...
هذه المرة هي من سيخذه...
ثارت وتمردت... صبّت كل غضبها على المجتمع وعلى جنس
الذكور كله...
باتت تعرفهم جيداً، وتعرف مبادئهم وأفكارهم الجاهلية...
لم تكن تريد المساواة معهم... لكن كل ما أرادته هو أن يعترفوا
بحقوقها... وأرادت زوجاً يحترمها... يحميها وأطفالها...
ويسكن قلبها مودة ورحمة...
أعلنت انتهاء فصول روايتهم معاً... واستدارت لتعود إلى
غرفتها...
كان يقف خلفها يبضع خطوات... كان هذه المرة هو... لم يكن
خيالاً أو سراً... هذه المرة لم تكن تحلم...
جاء ونظرات الندم تغزو تفاصيل وجهه... كان يحمل بين يديه
ورداً... لكنه عجز عن إبداء أي خطوة أخرى... أو حتى التفوه
بكلمة واحدة...
لقد عاد هذه المرة دون أن تطلب منه ذلك... دون أن تعتذر له...
دون أن تتوسل إليه وترمقه بنظراتها البائسة...

هل ستضعف أمام تلك الورود التي يحملها بين يديه...
أمام تعابير وجهه الذي بدا كالأطفال...
أتنسى العهود التي قطعتها على نفسها قبل قليل...
أتنسى تلك الحياة الجميلة التي صنعتها في مخيلتها منذ دقائق،
وبدت أجمل من سابقتها...
أتنسى ألمها كله... وتعود إلى لحظتها الأولى والأزلية... عندما
خلقت من ضلعه...
أهي الحقيقة التي أجهدوا أنفسهم بإقناعها بها؟؟
أهي الكلمات التي ما انفكت أمها تدسها في عقلها؟؟
أهو الوهن الذي جبلت عليه...

ڪي تقررَ عيناها



أدرك بأنه في طريق اللاعودة... ما من تراجع... ما من فرار...
إما الموت... وإما الموت...
بعض الأخطاء لا تغتفر... الله وحده من يغفر أما البشر لا
يغفرون...

.
. .
.

في بقعة من المجهول يسكن... لا أحد يعلم إن كانت تلك
المنطقة ضمن نطاق الحياة أم الموت...
لقد كان صغيرها المدلل كيف أصبح فجأة مجرماً مطلوباً
للعدالة...

متى سيعود؟

لن يعود...

لكنه يعود إليها مراراً ليذكرها بأن الموت قريب منا أكثر مما
نتصور...

قد يزورك الموت كل ليلة متقمصاً رداء الأرق... نعم الأرق سم
قاتل يسري في سائر عروق جسدك كتيار من الكهرباء محاولاً

أن يسلبك حياتك بأشدّ ألوان الألم... الأرق مجرم ذكي يعرف جيداً كيف يتنصل من جريمته دون أن يُحدث خلفه أي أثر... ينتزع روحك رويداً رويداً... يجعلك تمشي وتسال نفسك "هل أنا على قيد الحياة؟"...

كانت تراودها بعض الأحلام والوساوس التي تجعلها تتقلب في فراشها قلقاً، تستيقظ تطرد الأفكار من رأسها، تنفث تلك الكوابيس عنها... لقد تجاهلت كل تلك الإشارات، إنها أضغاث أحلام... هو قطعة من روحها بالتأكيد ستشعر إن حدث له مكروه.

لم يميت... فلا قبر له تصلي عنده، وتثر الورود حوله، وتدثره بدعواتها وتلاواتها الخاشعة، وتسقيه بماء مقلتيها.

لن تصلي عليه صلاة الغائب، بالتأكيد لم يميت، هو حي يرزق في بقعة مجهولة على هذه المعمورة، هكذا كانت تشعر وحدث الأم لا يخطئ تذكرت كلام والده عندما أشار إليه أحد الأقارب "صل صلاة الغائب على ولدك"، فأجابه: "إنه كافر لا صلاة عليه".

لقد أدركت أنه تجاوزها مئات الخطوات، لم يعد يفكر إن كان ابنه على قيد الحياة، لم يعد يأبه إن كان يتعذب، إن كان بحاجة إلى المساعدة، إن كان يشعر بالذنب أم لا...

ماذا لو عاد؟! ترى هل سيفصح عنه ويضمه إلى صدره؟!..
لقد استبدل كل مشاعر الأبوة لديه بالكره، لقد أصبح يبصر
وجهه في كل إرهابي يفجر نفسه ليقتل الأبرياء، في كل هؤلاء
الذين لوثوا صورة الإسلام، أصبح يحمله مسؤولية كل روح
تزهق، وكل قطرة دم تراق في هذا العالم.

هل هو قناع زائف غطا به قلبه ليدفن مشاعر الحزن والفقد...
أم أنه فعلاً بات يمقت صغيره... لكن عيناه كانتا دائماً تشيان
بالانكسار...

هي عكسه لم ولن تكره ابنها مهما فعل، سيظل صغيرها مهما
كبر، وسيظل مدللها مهما عصاها، وسيظل بنظرها طاهراً نقياً مهما
تلوث بالخطايا والذنوب.

لا زالت تحتفظ برسالته، لقد حاولت مراراً أن تمزقها لكنها لم
تستطع، هي آخر كلمات ابنها وإن كانت موجعة حد الموت، لكنها
تظل كلماته الأخيرة لها والتي لم يستطع أن ينطقها، والتي تدرك
جيداً أنه لم يكن يقوى على التفوه بها حتى لا يفطر قلبها، وعندها
قد يكون تراجعها محتملاً.

لقد اتخذ قراره الطائش الذي لا أحد يعلم كيف توصل إليه،
ومن دفعه إلى ذلك، ومن حمله على الاقتناع به، فمواقف عدة
وأشياء كثيرة قد تدفع بالإنسان إلى مثل هذا القرار.
ما زالت لا تصدق بأن ابنها المراهق ألقى بنفسه نحو الجحيم من
تلقاء ذاته...

لا زالت تنكر تلك الكلمات التي تحملها بين يديها، والتي خطها
بأنامله...

لا زالت تتجاهل كلمات الأقارب والمحيطين... "هل
سيفجر نفسه؟" ... "هل هو على قيد الحياة؟" ... "أما من أخبار
جديدة؟" ... "ادعي له بالرحمة"...

لا زال جزء منها ينكر كل ما حدث، "صغيري غير قادر على
إيذاء نملة... بالتأكيد لن يقتل الأبرياء..."

باتت تؤمن بالمستحيل، تؤمن بأنها ذات صباح ستستيقظ لتدرك
بأن كل ما حدث كان مجرد وهم من نسج خيالها، وأن ابنها لم
يغادرها أبداً... عندها لن تفلته من بين يديها.

ترى ما الذي حمل ابنها على الانضمام لتلك الجماعات
الإرهابية والتي تلوث صورة الإسلام؟

ألهذا الحد اختلط عليه الأمر!
أي جنة تلك التي يزينها لهم هؤلاء الدجالون... يحملون الجنة
بيدهم فإذا هي نارٌ لمن اتبعهم...
كانت تظن أن ذلك الفخ لا يقع فيه إلا الجاهلون، الذين لا
يفقهون من تعاليم الدين والحياة شيئاً، لم تكن تظن يوماً أن ابنها
انحرف عن طريق الله الصحيح وسلك طريقاً آخر، كان لا بدّ أن
تغرس في قلبه حب الله وتعاليم الإسلام الصحيحة، كان لا بدّ أن
تخترق جمجمته لترى كيف يفكر، وبماذا يفكر.
لو أنها ألقتة في اليم لتفربه من بطش هؤلاء المفسدين الذين
يدّعون الإصلاح وينسبون الحق إليهم...
أين كانت كل ذلك الوقت...
أما من إشارات...
ألم تشعر بأنه ثمة خطب ما...
أعجزت عن اكتشاف الشيطان المتلبس داخل ابنها...
ترى هل زيّن له الشيطان بأن الموت راحة، وأن عذاب جهنم
أهون من الجحيم الدنيوي الذي نعيشه؟!
لقد غفرت لابنها وحاولت أن تخلق له الأعذار، لكنها تعجز

عن تقديم الغفران لنفسها، حملت ذاتها مسؤولية ما حصل.
كانت تتمنى أن تراه يصلي، أن يحمل مصحفاً بين يديه، لكنها
لم تطلب منه يوماً ذلك، كانت جدته تردد لها دائماً: ”علميه
الصلاة.. والصلاة كفيلة بأن تعلمه الباقي”، تجاهلت كل النصائح
لقد أفسدته بدلالها وإهمالها في ذات الوقت.

ظلت كل الذكريات المريرة تتقاذف أمام ناظرها كل يوم، حتى
تلك التي لم تلق لها بالاً يوماً، فكانت الذكريات تتلبسها على
هيئة دب كبير يمد يده نحوها ويكشف عن أنيابه الحادة منذراً لها
بأنه سيلتهمها في أي لحظة تستسلم له... على هيئة نار تحيطها من
كل الجهات... فلا مناص للهروب منها... تكتوي بلهب حرّها
شيئاً فشيئاً... تجعلها تعان الموت مراراً عدة... قبل أن تقترب من
جسدها وتحرقه...

لم تكن هي ووالده بمثابة أبويه الحقيقيين، فقد تكفل حاسوبه
وهاتفه المحمول بمهمة تنشئته وغرس التوجهات داخله، هناك وحده
في غرفته عالم آخر كان يعيشه، وهناك كان يقضي كل وقته.
لقد وجهت هي وزوجها أصابع الاتهام كل إلى الآخر، فقد
حملها زوجها مسؤولية إفساد ابنهم بالدلال، وحملته هي مسؤولية

إهمال ابنه طوال الوقت... فعند المصائب نشغل في البداية بترئة أنفسنا أمام الآخرين، ثم نعود لنجلدها في دواخلنا... لقد دفع كل منهم ثمن خطئه.

مع أنها احتاجت إلى زوجها بجانبها لتشد به أزرها وتشرکه في أمرها، إلا أنها كانت تتحاشى أن تلتقي نظراتهم الموجهة، كان من المفترض أن يبكياء معاً، لكن كلاهما عاجز عن تحمل وجعه، فكيف ليحملوا أثقالاً إلى أثقالهم...

لم يكن الألم يتلاشى أو ينحسر... بل كان يكبر بمرور الأيام... لقد أصبح يتمثل بكومة الأدوية إلى جانب السرير... أما من عقار ينتزع تلك الواقعة من ذاكرتهم إلى الأبد؟... توصلوا إلى أدوية لجميع الأسقام والعلل... لكنهم عجزوا عن اكتشاف عقار يسكن آلام الروح وينتزع أوجاع الذاكرة...

هل هو عقاب أن نظل أسرى لأخطائنا وذاكراتنا؟!

يصعب علينا دائماً نسيان الماضي، نرغب أكثر في نسيان الألم من نسيان الأحداث... فبعض الذكريات كجرح مهمل يزداد ألمه ووجعه يوماً بعد يوم... قد يترك مكانه ندبة باقية لا تزول... أو قد يقضي علينا في أحد الأيام...

باتت تخشى التفكير بالنهايات... أن تضع نهاية لفصول روايتها... كانت تخشى أن تكسر حاجز الأمل لتقدم على مجهول قد يكون فوق طاقتها...

أيهما الأصعب جحيم الانتظار أم جحيم اليقين؟! فعندما نتحدث عن الأم فحتماً تختار العيش على أمل وإن كان زائف...

لقد أصبح فؤاد أمه فارغاً... وكادت أن تهلك لولا أن ربطت على قلبها بالأمل...

لقد تركها حائرة... كمن يمشي على الصراط يوم الحشر... يتعثر في مشيته ولا يدرك بعد إن كان مصيره جنة أم نار... متعبة وعاجزة... تتخبط في ظلماتها...

ما أطول ليلها!... لا أنيس لها سوى حزنها ودمعها... تذهب كل ليلة إلى غرفته تتأمل سريرته... تتلاقى نظراتها بصورته إلى جانب السرير... فتتمزق ألماً عليه ويعتصر قلبها شوقاً له... تبكي بحرقه... تكاد تبيض عيناها من الحزن... تلتقط قميصه... تلمسه على وجهها... تستنشقه... تقبله... وتضمه إلى صدرها كطفل صغير... تصلي كثيراً تطيل السجود وتدعو له بعد كل صلاة...

”اللهم إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه، أجمع بيني وبين ولدي في هذه الدنيا ومرة أخرى تحت ظلال جنتك“.

لقد كانت تخشى أن يخسر دنياه وآخرته...
تري أتجمعهم الجنان أم تفرقهم النيران...
أصبحت تعيش كسجين ينتظر حكم إعدامه... ليس الموت ما تخشاه... بل تلك المسافة التي تسبق الموت... تبدو طويلة وإن قصرت... فالأصعب من الموت هو أن تعيش بانتظار الموت... كيف سيمضي الوقت مستعجلاً... كيف تحرر عقلها من كل تلك الأفكار والمخاوف... حتماً ستصاب بالجنون... فبعض الجروح بمرور الوقت تشفى من تلقاء نفسها... لكن جرحها كان يكبر بمرور الأيام... تلك الغصة القاتلة يزداد ألمها يوماً بعد يوم...
سيظل ذات المشهد يتكرر كل صباح... تستيقظ على أمل أن يمنّ الله عليها بعودته... تنهض من سريرها وتسأل نفسها: ”تري هل سيعود اليوم؟“... وستعيش بانتظار الفرج السماوي ”فرددنه إلى أمه كي تقرّ عينها“...



يلا تمام...



لو يعود الزمن بنا يا صغيري...
أعدك بأن نلعب طوال الوقت لن أمل ولن أتعب تماماً مثلك...
سنلعب بالأرجوحة كثيراً... سألتقط لك عشرات الصور
يوميًا...

لن أوبخك إذا اتسخت ملابسك... سأكون صبورة عند كل مرة
تكسر فيها صحناً أو تسكب طعامك على الأرض...
سأغني لك كثيراً... سنركض تحت المطر... ونضحك كثيراً...
وأقبلك كثيراً...

سنهجر هذا العالم المزعج... ونخلق عالمنا الخاص... ” أنا
وأنت“...

لا تزال تلك الليلة محفورة في ذاكرتها، كانت ليلة ماطرة في
أواخر يناير، استيقظت وكانت لا تزال تعاني من آثار المخدر،
بصوت خافت ومُلح طلبت أكثر من مرة بأن ترى طفلها، أن تحمله
بين يديها... ترضعه... تقبله... تتفحص ملامحه باحثَةً عن شبه
بينها وبينه، إصرار أهلها والطاقم الطبي بأن الوقت غير مناسب
لترى الطفل هو ما أكد الشكوك لديها بأن صغيرها يشكو من
خطب ما.

عندما يولد طفل يصعب التحديد ما إذا كان طبيعياً أو إن كان يشكو من علة، لكن مع طفلها كان الأمر واضحاً، فكل من سينظر إليه سيعرف فوراً أنه مصاب بـ "متلازمة داون"، عيونه تبدو مختلفة، حجم رأسه أكبر من الطبيعي، بالكاد كان يغلق فمه، وكلما كبر أكثر أصبحت معالم مرضه أكثر وضوحاً.

كان الأمر صادمًا للجميع وليس لوالديه فقط، مع أن الطبية لمحت أكثر من مرة بضرورة إجراء بعض الفحوصات ليطمئنوا على وضع الجنين، لكن تم تجاهل أوامر الطبيبة، ما الفائدة من استباق الأحداث في الحالتين سيولد الطفل فكان من الأفضل تأجيل ذلك الألم لموعد أبعد.

كانت متأكدة بأن القادم يحمل الكثير من المصاعب، ويبدو أن المآسي تلحن بمن يرتقبوها ويفكرون بها، أما الذين لا يبالون فنادرًا ما تزورهم المحن.

أخبرتها جدتها لأمرها في تلك الليلة بضع كلمات كان من الصعب تقبلها في تلك اللحظة، فالجميع كان يهمس في أذنها عبارات مواساة علها تخفف ألمها، لكن كلمات جدتها كانت الأكثر تأثيراً على مسمعها، وهي ما أبقته ثابتة أمام كل الصدمات التي عبرت حياتها.

”لا يكلف الله نفساً إلا وسعها“ ابنتي تذكرني هذه الكلمات كلما أصابك الحزن وكوني على ثقة بأن الله أرحم بنا من أنفسنا، طفلك هذا نعمة من السماء، فقط تحتاجين جرعاتٍ من الصبر والثقة بالله لتجتازي محتتك.

لا شك أنّ الأيام الأولى بعد ولادته هي الأصعب، في بداية الأمر بدا أن الواقع والأحلام اختلطا عليها لقلّة نومها، كانت توهم نفسها بأن كل ما حدث مجرد كابوس من نسج خيالها ستفيق منه قريباً، لكن الواقع كان غير ذلك.

أسمته سالم، تذكرت النقاش الطويل الذي دار بينها وبين زوجها حول اسم الطفل عندما علموا بأنهم سيرزقون عما قريب بصبي، أرادت أن تسميه تيمناً بوالدها، وزوجها أيضاً اختار اسم والده، فجاء سالم واضعاً حلاً يرضي كلا والديه، فبال تأكيد لا يرغب أحد أن يسمي طفله المريض على اسم شخص مقرب، فالبعض عندما يتحدث عن طفل معاق كما لو كان يتحدث عن مصيبة ما أو حظ سيئ.

كانت تكره استخدام كلمة ”معاق“، كانت ترى بأن طفلها مختلف عن بقية الأطفال، بل إن جميعنا مختلف عن الآخر بطريقة

ما، واختلافاتنا هي ما تميزنا عن بعض، أما في وضع طفلها فقد كان اختلافه مختلفاً، كان أشد المخلوقات طيبة وبراعة، لا يحمل من خبث البشر شيئاً، كان نقيّاً، أبيض القلب.

لم تكن أم سالم مشغولة بكباقي الأمهات بتعليم طفلها الكلام، ولا حقاً تعليمه القراءة والكتابة، فقد كشفت التشخيصات الطبية أن إعاقة سالم ليست بدنية فقط، وإنما عقلية أيضاً، وأنه سيواجه صعوبات كبيرة جداً في التعلم والنطق، وفي كل مرة كان يقول لها الأصدقاء كم هو ذكي طفلها، تدرك في داخلها بأنهم غير صادقين، وتعلم جيداً أنهم يقولون ذلك مواساةً لها.

كبر سالم وكبرت معه همومه وهموم أمه، لم يكن لديه الكثير من الوسائل التي يشغل وقته فيها، فهو لم يكن يشاهد التلفاز، أو يلعب البلاي ستيشن، وبالتأكيد لم يكن يقرأ، كان يعيش بفراغ كبير، ويحاول أن يخلق عالمه الخاص الذي لم يستطع أحد فهمه، كان يحب أن يلعب بالأرجوحة كثيراً ولو أن أمه تركت الخيار له لبقى يلعب بها طوال الوقت، يضحك تارةً، وتارةً يبكي حتى تأتي والدته لتلهزه وتلعب معه، نظراته البريئة كانت تخبرها "أمي، أنتي الوحيدة التي أريدها أن تبقى إلى جانبي دائماً".

عند كل مرة يزورها أحد المعارف أو الأصدقاء برفقة طفلهم، كانت تلاحظ جيداً نظراتهم محذرين صغارهم بألا يقتربوا أو يلعبوا مع سالم، حتى أنها في إحدى المرات سمعت صديقتها تهدد ابنها الصغير إن لم يتوقف عن الإزعاج ستنادي سالم يضربه أو يأكله، نعم أصبحت الأمهات ترعب أطفالهن بطفلها الصغير، مع أنه طفل لطيف ابتسامته لا تفارق وجه البريء، إلا أنه في بعض الأحيان كانت تتنبه نوبات من الغضب أو البكاء، واستطاعت أمه مع الوقت أن تجد حلولاً لذلك.

كثيراً ما يردد آه... آه، كانت تجهل إن كان ذلك تعبيراً عن ألم يشعر به، أم أنها الأحرف الوحيدة التي استطاع أن ينطقها، ودت لو تخترق جمجمته لعلها تفهمه وتشعر بما يشعر به، إنه يعيش عالمه الخاص، عالم مختلف تماماً عن الذي نعيشه.

كان عُمره أربع سنوات فقط عندما أخبرها الطبيب بأنه يعاني من مشاكل في النوم، فبالرغم من حركته الكثيرة ونشاطه الزائد، إلا أنه لم يكن ينم لساعات كافية، ألا يشعر ذلك الجسد الصغير بالتعب والحاجة إلى الراحة، نحن الكبار يكاد يقتلنا الأرق في بعض الأحيان، فكيف بطفل صغير، طفل يعيش بفراغ مستمر

وروتين دائم، ليته ينام ويختصر من ساعات الملل المتكررة.
كان يزعجها كثيراً قبل النوم، فلم تستطع هي الأخرى أن تنام
جيداً، وفي بعض الأحيان تراودها أفكار غريبة، بأن تغلق عليه باب
غرفته لتذهب وتحظى بنوم هادئ وعميق، لكنها بالتأكيد لم تفعل
ذلك فهي تخاف كثيراً على صغيرها الذي ترعبه الوحدة والظلام.
اعتادت أن تقرأ له قصة قبل النوم، ينصت جيداً ويتظاهر بأنه
يفهمها، كانت تحب أن تغني له كثيراً لعله يغرق في النوم.

يلا تنام يلا تنام.. ادبحك طير الحمام

يغرق في نوبة من الضحك عند كل مرة تغني له، لا تدري ما
السبب! ربما صوتها مضحك، أو أنها تبدو غبية بالنسبة له عندما
تغني، تتأمله بينما ينام، ترى هل يحلم مثلنا؟ هل تتباه الكوايس؟...
في النهاية كان يستسلم وينام لكنها تضطر للاستيقاظ باكراً لإنجاز
أعمالها اليومية قبل أن يفيق من نومه وتنشغل به.

للنشر والتوزيع

- سالم ابق مكانك.
- سالم لا تمسك الصحن.
- سالم لا تسكب الطعام على الأرض.
- لا... لقد نظفت السجادة عشر مرات اليوم.

- أنت شقي... أنت طفل مزعج، يجب أن تسمع كلام ماما...
ماما لم تنم بسببك بالأمس والآن أنت تزعجها.
لعل أصعب جزء لدى أي عائلة تمتلك فرداً لديه إعاقة هو
المجتمع، تأثير الناس قد يكون في بعض الأحيان أكبر من تأثير
الإعاقة نفسها، فقد واجهت أم سالم صعوبات كثيرة في دمج ابنها
مع المجتمع، فعند كل مرة تأخذه للعب في الحديقة العامة تكون هي
وطفلها محط أنظار الجميع، تبدأ كل الأمهات وأطفالهن يراقبن
بصمت حركات وتصرفات من هم بمثل وضع سالم، مع أنه كباقي
الأطفال يريد فقط أن يلعب.

لا تزال تذكر تلك المرة التي أتيحت لها فرصة عمل خارج
المنزل، فقد كان عمره حينذاك سنتين، وقد رفضت جميع حضانات
الأطفال استقبال ابنها عندما شرحت لهم وضعه، لم تلق اللوم
عليهم إذ أنها نفسها لم تستطع في كثير من المرات أن تتعامل معه.
تخيلت نفسها في كثير من الأحيان بأنها تعيش على كوكب آخر،
بفردتها هي وطفلها، سيبدو الأمر أسهل بكثير، لن تضطر لمواجهة
نظرات الشفقة والاستغراب يومياً، لن تسمع عبارات استهزاء
وسخرية من الأطفال المزعجين، وبالتأكيد ستعيش سعيدة هي

وسالم، سيضحكوا كثيراً ويلعبوا طوال الوقت، لكن ما الجدوى من كل تلك التخييلات، فقد انتصر بالنهاية تأثير المجتمع عليها، والآن هي نادمة...

نادمة جداً لأنهم لم يكونوا سعداء معاً، نادمة على كل وقت تجاهلته فيه، على كل فرص الفرح التي أضاعتها، تمت لو يرجع الزمن بضع خطوات للوراء لتصلح كل شيء، لتمسح مفردات الحزن من قاموس ماضيهم، لكن على ما يبدو أن نصيب كل شخص من الحزن مساو لنصيبه من الفرح، لكننا نحن من نعطي الأحران مساحة أكبر في حياتنا، ونسمح لها بأن تنقض علينا وتسلبنا فرحنا، كان بإمكانها أن تفرح بكل اللحظات التي جمعتها بطفلها، كان بإمكانها أن تبني بينها وبينه جسوراً ضخمة من السعادة، لكن حزنها دمر كل تلك الجسور.

عندما تتصفح ألبوم الصور بالكاد تجد صوراً له، ففي حالة باقي الآباء الذين لديهم أطفال طبيعون تجدهم يحتفظون بمئات الصور لأطفالهم، تجدهم قد وثقوا كافة مراحل نموهم، أول مشية... أول مرة استخدم المعلقة... أول يوم له في المدرسة... وعدداً من الصور وهو يطفئ شمعة ميلاده، أما في حالة سالم فكان من الصعب

على والديه أن يوثقوا ألمهم، فالماضي كان قاسياً بالنسبة لهم، لم يستطيعوا تجاوزه أو تجاهله.

اعتاد والدا سالم طوال السنين على زيارة الأطباء والمستشفيات إما لبعض الإجراءات الروتينية، أو لمرض أو شكوى أو ربما ألم في الأسنان، لكن زيارتهم هذه المرة كانت مختلفة، كانت أشبه بالصاعقة، أو بالسقوط من قمة مرتفعة، لن تنسى كلمات أول طبيب امتلك الجرأة ليخبرهم بوضع سالم الحالي، كيف يمكن لأصحاب المهن الطبية بأن يتجردوا من إنسانيتهم في تلك اللحظات. يؤسفني إخباركم أنّ ابنكم مصاب بالسرطان.؟؟!!

ظهرت نتائج التحليل وصور الرنين المغناطيسي. ؟؟...؟؟!!

كل التحليلات تشير إلى أنه يعاني من مرحلة متقدمة من سرطان الدم -اللويميا-.

للنشر والتوزيع

.... كيف؟؟ متى!!!

أنا والطاقم الطبي سنبدل كل ما في وسعنا. .!!!!!!

لم تنم تلك الليلة، أو بالأحرى فقدت القدرة على النوم في تلك اللحظة التي علمت فيها بأن طفلها قد هزمه المرض، شعرت أنّ روحاً ستغادر عمّا قريب، مؤلم جداً موت من جاء إلى هذه الدنيا وهو يتألم، من جاء للحياة ولم يتقبله أحد أو يشعر به، فهو لم ير سوى الحزن والألم، لم يحظى بالكثير من الذكريات السعيدة، وحاول جاهداً أن يصل إلى سماء الفرح، لكنه لم يصل.

ظل سالم يصارع المرض بضعة شهور، ذلك الجسد الصغير هَرَمَ بسرعة، وظل السرطان ينهش منه، كيف له أن يحتمل كل ذلك الألم، كل تلك العقاقير التي تآكل أيضاً من جسده، كل تلك الأجهزة من حوله، وكل تلك الأسلاك المزروعة في أورده. بدأ يفقد شعره... ابتسامته... طفولته... وبالنهاية روحه.

اليوم اعترفت بأن مجيء سالم إلى حياتها لم يكن صدفة أو حظ سيئ، لم يكن مجرد ابن كباقي الأبناء، لقد عبر حياتها بشكل مختلف، وقد غيّر في أعماقها الكثير إلى أن وصلت لما هي عليه اليوم، فقد كشف لها عن صفات لم تكن تظن يوماً بأنها تمتلكها، لقد كان سالم الشمعة التي أنارت طريق حياتها وأعادتها إلى فطرة الإنسان الأولى التي لم تدنسها البشرية، لقد جعلها نقية.

هي تغيرت كثيراً، أما هو فلم يعد كسالم الذي عرفته، تكاد نظراته الموجهة أن تقتلها، مع أنه لم يتم العشر سنوات، إلا أنه انتهى كما لو أنه عجوز في الثمانين من عمره، فقد ذبل جسمه، وشحب وجهه، وخفت بريق ابتسامته، وكانت عيناه تنطقان بكل شيء، لكنه كعادته لم يستطع أن ينطق بشيء.

لقد تركت الليلة التي أجرى فيها عملياته الأخيرة ندبة كبيرة في صدرها، لقد جاء إلى هذه الدنيا في ليلة ماطرة، وغادرها أيضاً في ليلة ماطرة، وكأن السماء بكّت حزناً عليه.

الآن وسالم قد رحل ستفتقده كل الجمادات، غرفته، أرجوحته، وقلب أمه الذي لم يعد ينبض، كل الأشياء تبدو مخيفة بدونه، لقد ابتعد كثيراً، لن تستطع بعد اليوم أن تصل إليه لتعانه وتقبله، لقد قتلها الحنين إليه.

لن تنسى نظراته الأخيرة، نظر إليها بحزن ووهن، كان يدندن بألم موسيقى "يلا تنام"، وكان يمد يده الصغيرة لتحضنها يدها، ثم ابتسم ابتسامة أخيرة وكأنه يخبرها:

"لا تقلقي يا ماما سأكون بخير... سأغادر عالمكم المزعج وسنلتقي بعدها في عالم آخر جميل".



مرافئ الانتظار



انتهت الرحلة وتوقف قطار العمر عند آخر محطاته... عم
الصمت أرجاء الغرفة... يتمدد حسن بجسده الهزيل كجثة هامدة
على سرير الموت... الحمى تنهش أعضاءه... عيناه تمتلئان بالأمم...
وجهه تلمخ بصفرة شاحبة... وتجاويز الزمن حفرت طريقها
فيه... يئن بزفير متقطع... شلالات الحزن تفيض من مقلتيه...
تحاصره أشباح الحنين... وتفتح سجنًا في ذاكرته... يستوطنه
الحزن العتيق... يمد سبابته اليمنى بتثاقل... يتهيا للقاء بارئه...
وفي اليد الأخرى يتشبث جيداً بمفتاح نحاسي صدى... يقربه
صوب صدره... يشير به نحو أبنائه الستة... يتناقل ببصره نحوهم
جميعاً... تبتسم ملامحه بالأم... يعاود وصيته الأخيرة والوحيدة
والتي حفظوها عن ظهر قلب...
”ادفنوني في اللد“...

أكثر من ستين عاماً في الشتات وهو بانتظار أن تدق أجراس
العودة إلى الوطن... مثقل بالحنين والشوق إلى أرض آبائه
وأجداده... لا يريد سوى أن يلفظ آخر أنفاسه في بيته ليحتضنه
ثرى الوطن...

على ذات الفراش ومنذ ثلة شهور كانت زوجته تحتضر...

لفظت روحها وهي تردد :

”خذوني إلى اللّد.. واحملوني.. واحفروا لي قبراً تحت شجرة
التين بجانب إبراهيم“
توفيت ودفن معها حلمها... وظل إبراهيم وحيداً... وظل
البيت خاوياً...

رحلة النكبة تتجدد في ذاكرته... حفرت أخاديداً في الأعماق...
مشاهد حية تعتصر قلبه... يمسح دمه بظاهر كفه... يحاول أن
ينفض عن نفسه غبار الذكريات...

لكننا لم ننس... نتعايش ونجبر أنفسنا على واقع فوق طاقتنا...

الأرض أغلى من الروح...

الموت في الوطن ولا الموت في الملجأ...

الهجرة فناء... والغربة شقاء...

لَمْ رحلنا؟؟... لَمْ لَمْ نبقى؟؟؟

ليتنا نعود...

لم نكن ندري ساعتها أنه الوداع... ظننا أن هذا الفراق سيستمر
يوماً يومين... سنة سنتين... ثم أكثر من ستين عاماً... ثم تعود
الروح إلى الوطن... ويفنى الجسد في الشتات...

سنون وسيموت جيل النكبة... أصغرهم سيموت... حتى
ذلك الذي كانت تحمله والدته في بطنها يوم غادرت... ترى هل
سيموت حلم العودة معهم ويضمحل...

دفن حسن بكر أبناءه إبراهيم قبل أكثر من ستين عاماً يوم بلغ
الستين من عمره تحت شجرة التين بجانب بيته في اللد... هو
أكثرهم إخلاصاً للوطن... رفض أن يغادر وظل هناك... وفي
النهاية ضاع البيت... وضاع إبراهيم... وضاع الوطن... وظل
المفتاح ليذكرهم بأن ما مروا به لم يكن يوماً سراً...

لا ينزح الإنسان بملاء إرادته... حشود اللاجئين خرجوا مرغمين
من جدران بيوتهم... منكسي الرأس... يجرون خطاهم إلى وجهة
نائية... النكبة جعلت أقوى الرجال عاجزين... شاهدوا أرضهم
تغتصب... فروا من دفء البيت إلى برد المخيم والملجأ... تقتلهم
خناجر الوحدة والضعف... تعبوا من الوقوف على شواطئ الانتظار
محمليين بأمال العودة والرجوع... سنينهم عجاف... أيامهم عارية
من الفرح ويملؤها الشوق العقيم... أفنوا حياتهم خلف ستائر
الغربة وبين جدران الحنين... وبالرغم من كل شيء لا زال الأمل
يختبئ في ركن من أعماقهم... وسيظل الوطن بانتظارهم...

يكرر حسن وصيته...

- "ادفنوني في اللد... ادفنوني في اللد"

أبناءؤه جبناء... كجبنه يوم فرّ من أرضه... لن يدركوا أبداً شعور
النكبة... لن يتساوى ألمهم شيئاً بالنسبة لمن عايشها... لن يفهموا
معنى أن يتحول الوطن بطرفة عين إلى خيمة... لم ينثروا أحلامهم
في شوارع اللد... وبين حارات الوطن... لم يستنشقوا عبير
هوائه وبياراته... لم يعانقوا الأرض ولا شجرة الزيتون أو شجر
البرتقال...

حفر لهم في الصخر ليبدل خيمتهم المهترئة بقصر... لكن تلك
القصور أنستهم وطنهم...

تشدد سكرات الموت على حسن... يفتش عن الوطن بين
أحلامه...

لم نغرق أنفسنا بالأحلام أكثر من الواقع وهل الأحلام مضيعة
للوقت؟!...

ندرك بأنه يجب علينا أن نحلم لنحيا حتى وإن بتنا موقنين بأنها
لن تتحقق... على الأقل فلنهرب من واقعنا قليلاً ولنعش سعداء

بالحياة الوهمية التي نصنعها في مخيلتنا... فهي ما تهبها الحياة في
بعض الأحيان...

يهتدي إلى طريق الوطن الضائع... يتعثر بأشواك الغربة...
تسبقه زوجته إلى اللد... يلحق بها... إبراهيم بانتظاره... يعانقه...
يتمدد بجانبه تحت شجرة التين... تتلاشى الحمى من جسد حسن...
يغمض عينيه... يستسلم لنعاسه... ويغط في نوم أبدي...



بُعْثَتْ مِنْ مَرْقَدِهَا



لا أحد يؤمن بأنّ الأرق والاكئاب أمراض... فقط من يعانون منهم يدركون ذلك جيداً.

الزكام البسيط مرض... التهاب الحلق مرض... السرطان مرض... أما الأرق والاكئاب فلا.

”تستطيع أن تنام مبكراً“...

”لا تشرب الكافيين“...

”لا تفكر كثيراً“...

”السبب أنك تستيقظ متأخراً... حاول الاستيقاظ مبكراً“...

لا أحد يدرك معنى أن تمضي ليلتك محمداً بالظلام... وبدلاً

من أن تعدّ النجوم لتنام تعدّ همومك وأحزانك... تستعيد كل الذكريات حتى تلك التي لم تلق لها يوماً بالاً...

لا أحد يعلم بأنك تضم الوسادة بشدة وتغلق فيها فمك لتخرج

صرخة مكتومة من أعماقك تكاد تقتلك إن أبقيتها داخلك...

تكتمها فقط لأنك لا تريد أن تزعج أحد بها... لا تريد أن توظف

أمك من نومها وتقلقها وحتى تتجنب سؤالهم ”ما السبب؟“

لا أحد سيفهم حتى أنت لن تفهم سبب ذلك...

لا أحد يعلم أنك تبكي كل ليلة بحرقة وبنيحيت تختلف له

أضلاعك دون سبب هكذا لأنك تعجز عن النوم.. تنهض...
تمشي.. دون جدوى.. تهول.. تركض.. تتكسر أطرافك من المشي
في مساحة ضيقة بغرفتك.. تذهب بعدها إلى السرير مستسلماً
بعقل متعب وقدمين متورمتين.. وأيضاً تعجز عن النوم...
أن يجتاحك تيار من الألم يسري كل أجزاء جسدك... لا تدري
إن كان هذا الألم حقيقياً أم أنه وهم من اختلاق مخيلتك... أن
تنهض من سريرك تضرب رأسك بالجدار... تضرب بقبضة يدك
كلتا ركبتيك بأشد ما أوتيت من قوة... أنت لست مجنوناً... أنت
فقط تعجز عن النوم... حتى في لحظات فرحك يشاركك الأرق...
تظل تكرر شريط المشهد مرات ومرات دون توقف... تحاول أن
تبحث عن الزر الذي يطفئه لكنك تعجز عن إيقافه...
أن تتخيل وجود شخص أمامك... شخص غير موجود
بالحقيقة... شخص من محض خيالك... تشكو له وتشرح
مشكلتك غير المفهومة المزوجة بنحيب مؤلم... وحده من يستمع
لمشكلتك... ووحده من يقدر حجمها... ووحده القادر على
فهمك... وقد تبكي ويبكي معك... يناولك منديلاً تمسح قطرات
الدمع التي أحرقت وجنتيك...

أو أن تتخيل أمك أمامك تصارحها بألمك ترتب الكلمات حتى تخبرها بالصباح كل شيء... لكنك تستيقظ في الصباح وتردد "هي لن تفهم لا أحد سيفهم فقط ستقلق" ... فهي لن تقدر أبداً بأن ما تعانيه مشكلة... لا أحد سيقنع بأن ما تعانيه قد يقودك يوماً إلى الجنون... ستقول لك "لا تفكر!!" ... لا أحد يقول "لا تفكر" ... بل "كيف لك أن تتوقف عن التفكير؟؟" ... "كيف تطفأ جمجمتك عن العمل؟؟" ... "كيف تنام؟؟" ...

"كيف تنام؟" ذاته السؤال الذي تكرر ليال على نفسها كل ليلة ولا تزال تجهل إجابته... الجميع ينام فقط هي والقمر... الأرق يعرّي أوجاعها كل ليلة... القلق يحبسها كسجينة داخل رأسها.. داخل أفكارها.. داخل غرفتها...

تنظر إلى انعكاس وجهها في المرآة... إلى هاليتين من السواد غطتا محجريها... تشبه الباندا لكنها ليست كالباندا... الباندا يمضي حياته في النوم وهي تعجز عن النوم... تساءلت من أين جاءت الهالات على عينيّ الباندا هل يتظاهر بالنوم مثلها تغلق الباب على نفسها اثنتي عشرة ساعة... نصف يوم... يظن الجميع أنها نامت كل هذا الوقت دون أن يتساءلوا من أين جاءت هالات الباندا... تلك

البقعتين الداكتتين كيف اجتاحتها جمال وجهها وبراعة عينيها... ألم يلحظوا ذبول وجهها؟؟ بقايا بكائها؟؟ احمرار عينيها؟؟ وتعاسة واضحة على تعابير وجهها!!.

لو كانت قادرة على فهم نفسها لارتمت في حضن أحدهم وباحت بكل شيء لكن لا قدرة على وصف ذاك الشعور... أي ألم في الدنيا أهون من هذا الألم الذي يجعلها تصارع الحياة وحيدة وتقود معركة ضد جيوش ضخمة بمفردها.

كانت شخصاً آخر قبل أن ينفذ مخزون جسمها من السيريتونين أو ما يسمى هرمون السعادة... أما الآن غدت مختلفة... أصبحت ليال كئيبة وحزينة... تستقبل الأحداث بذات الوجه... الفرح والحزن كلاهما سيان... ذات التعبير كل مرة عيون ذابلة شفتان متبستان عاجزتان عن الإفراج عن مبسمهما... فقدت اهتمامها بالأشياء.. بنفسها.. ورغبتها في الحياة... تركت الأصدقاء.. اعتزلت ممارسة الحياة الطبيعية... أوجاع مكتظة استوطنتها.. صداع قاتل عدم تركيز... باتت فارغة من الداخل خاملة منطوية.. أعماقها مشوهة... يجرفها الحزن إلى رغبة للبكاء دون سبب... يشق الطريق في دواخلها نحو الموت...

الأمراض السيكلوجية تقتل دون أن تحدث أي أثر جسدي
وفسيولوجي... يصعب على أي أحد تشخيصها... تجعل ضحيتها
تقف على أعتاب باب الحياة لا تقوى على الدخول والمواجهة
ويبدو الانسحاب خياراً أفضل.

الاكتئاب بحد ذاته ليس الحزن... بل أن تكون غارقاً في محيط
من السعادة لا تستطيع التعايش معها.. لا تجد التعامل معها... أن
تكون غارقاً بين نعم لا تحصى دون أن تستشعر أي فرح... أن تمتلك
كل شيء وتنزف وحدة... ليس الموت ما تخشاه بل الحياة هي ما
يخيفك!!... ليس الموت نقيض الحياة بل الاكتئاب!!

تعيش ليالي في خوف دائم... وترقب للأحزان... تقيد أغلال
الوساوس... تستبق الأحداث.. أو تختلقها.. ترى موتاً قادماً في
الطريق سيخطف منها كل شخص تعرفه... وتهيئ توابيتاً لاستقبال
المصائب... سيدير لها كل صديق ظهره... وسيتخلى عنها كل
شخص أحبه... تتطاير أحلامها... تهوي في حفرة وتضرم النيران
فيها...

تمارس طقوس الحزن كل ليلة... تتمزق مقلتها.. تتساقط
أهدابها.. تنتفخ عروق عينيها وتنضح احمراراً.. فوهة من البركان

تنفجر من بؤرة عينيها.. صرخة مكتومة.. شهيق مختنق.. أوجاع
مختزلة.. جسد ينتفض.. أطراف ترتعد.. تهوي على الأرض..
تصارع الموت.. تعايش سكراته.. تنتقي كل ليلة موتة مختلفة..
تموت.. تبكي وترثي نفسها.. تقيم مراسم العزاء.. تعلن الحداد
ثلاثة أيام.. تتعفن جثتها.. تقتات الطيور على بقاياها.. تفيق..
تعود للحياة ثانية.. تستيقظ كل أوجاعها من جديد.

”قلق... أرق... اكتئاب... هلع... ذعر... وسواس... موت“
يحملها القلق كل ليلة معصوبة العينين مكبلية اليدين وأغلال
تطوق عنقها... يغرس أنيابه الحادة ينهش لحمها ويلقها في حفرة
من النيران في غابة مهجورة مكتظة بالوحوش.. بظلال الأشجار
المخيفة وأصوات الرياح المرعبة... نوبات من الهلع تتابها تجربها
نحو السرير... سريرها الذي يذكرها بالمقبرة في ركن من الحي...
يشبه ركنًا مظلمًا في أعماقها... هناك في الأعماق حيث عالم من
المجهول يسكنك... حتى أنت نفسك لا تستطيع اختراقه...

لا تزال في العشرينيات من عمرها لكنها فقدت رغبتها في الحياة
تعجز عن مواجهة الجزء القادم من حياتها.. تخلت عن أحلامها..
لا ترى من ألوان الدنيا إلا السواد.. سواد حالك كالليل.. كاسمها

”ليال“.. سعادتها وعاء مثقوب فقدتها منذ أمد لا تدري متى ولماذا وصلت لكل هذا.. تخشى أن ينتهي بها الأمر مقيدة إلى سرير تتلقى صعقات من الكهرباء أو أن تودي بحياتها بنفسها... نعم فكرت مراراً بإنهاء حياتها... فكرت كثيراً بالموت... وتمنته كل ليلة..

سئمت كل الأدوية والعلاج الفاشل مرّ أيلول.. تشرين الأول.. فالثاني.. ولا زالت كومة العقاقير لا تجدي أي نفع.. لم تستجب للعلاج.. فقط ازداد وزنها.. ازداد ألم معدتها.. لم ينجح أي علاج بترويض وحش الاكتئاب داخلها.

”هل سننسى؟!“

” نعم إن توقفنا عن التفكير وانشغلنا بأمر آخر وبمرور الوقت سننسى.“

” لم أعد قادرة على احتواء كل هذا الحزن، أحاول جاهدة أن أعيش كباقي البشر.“

أخرجت ورقاً.. أمسكت قلماً.. جربت أن تكتب ما بداخلها.. تفجرت غيوم من مقلتيها.. وانهمر مطر سخي.. ظلت تكتب وتكتب كلمات غير مفهومة.. جمل غير مترابطة.. طلاس.. ثم أشياء مفهومة.. ثم عادت للغموض.. انتهت.. أعادت قراءة

ما دونت.. شعرت بارتياح.. إحساس من نوع مختلف.. راقها الأمر.. كررته كل ليلة.. كل صباح.. وكل مرة حاول فيها وحش الاكتئاب أن يفترسها..

ذلك الضجيج بداخلها الذي لا يسمعه أحد.. تلك المعارك التي تخوضها وحدها.. تلك الأوجاع القابعة في عتمة أعماقها.. ألقها على الورق.. باحت بمكنونات صدرها.. وأصبحت أوجاعها تنزف حروفاً.. خواطر تفيض من جوارحها حبراً.. تتساقط دموعها كلمات على الورق.. غمست ريشتها بسواد ليلها لتلون الكلمات.. وزينت الألفاظ ببلاغة الألم والمعاناة.. اختزلت مشاعرها في وريقات.. نسجت رداء الأمل من خيوط الأوجاع واليأس..

تفقد الإلهام في الكتابة ينقطع وحي القلم.. إنها بحاجة إلى أن تتألم ثانية.. بحاجة لأن تنزف من جديد.. تلقي تعويذة تستحضر أوجاعها.. تعود للكتابة من جديد.. أطلقت العنان للقلم ليختار النهايات بنفسه.. لكنها لا تؤمن بالنهايات.. فبعض النهايات بدايات جديدة.. الموت في حد ذاته ليس نهاية بل بداية لفصول من روايات الحزن والفقد بالنسبة لأحبته..

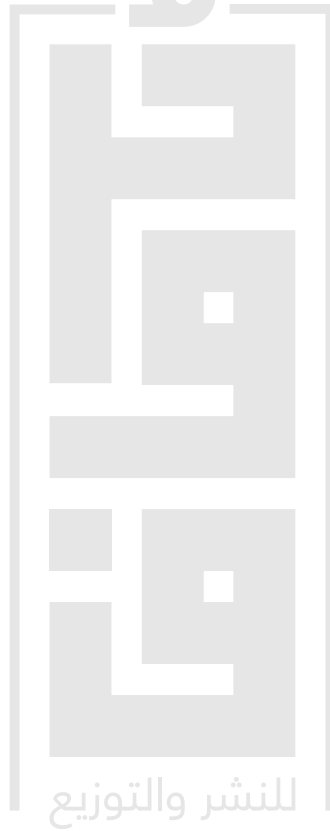
كانت ليالي شفافة.. استطاعت أن تمتص أوجاع البشر.. أن تغوص في أعماقهم بحثاً عن مشاعرهم.. أن تبصر انعكاسهم في مرآة قلبها.. أن تختزل معاناتهم.. دونت كل أحزانهم وآلامهم وأفراحهم.. بثت كل مكنونات دواخلها.. واختلقت قصصاً من واقع البشر.. وألقت تلك الأحاسيس بين أسطرها.. فكتابتك المفضل ليس ذلك المتكامل فنياً ولغوياً.. أو ذلك الذي حصده العديد من الجوائز.. أو لاقى شهرة بين الأغلبية.. بل ذلك الذي لامست كلماته قلبك.. استوقفك جزء.. حدث.. سطر.. وربما كلمة.. توقفت وحدثت نفسك ”هنا أنا“..

جعلت من الوحدة صديقاً ورفيقاً لها.. وأضاءت الليالي السوداء بكلماتها.. كتبت عن الحزن الألم فقد الحب السعادة وعن مشاعر لم تختبرها.. كتبت عن كل شيء إلا ذاتها.. أفرغت مكنوناتها وأوجاعها... لكنها دست تلك المشاعر بين قصص مختلفة عنها.. لا تريد أن تنظر للوراء وتقلب الصفحات لتتذكر بأنها انهارت في فترة من حياتها...

نحتاج للنوم لزوال شعور الضيقة الذي يعترينا من فينة لأخرى... لكن إن كنت عاجزاً عن النوم ومبتلى بالأرق والاكئاب

فالأمر سيتفاقم... لا بدّ من البحث عن منفذ آخر... متنفس آخر...
فكانت الكتابة عالمها الآخر... كوكبها السري... الكتابة تصنع لها
شيئاً من التوازن عندما تتأرجح بين دهاليز الحياة... تتشلها من
الموت غرقاً بين أمواج القلق والاكتئاب...
أكانت تدرك بأن ذلك الاكتئاب الذي كان يرميها كل ليلة بين
برائن الموت هو ذاته الذي منحها الحياة؟!..
السعادة ليست قراراً وليست اختياراً كما أخبرتها أمها.. لكنها
امتلكت القرار على أن تتعايش مع أحزانها بسلام ومدت يدها
مصافحة لتتصالح مع الحياة..
فأكبر انتصار في حياة المرء أن ينتصر على أحزانه.. تذكرت جملة
قرأتها في أحد الكتب "اصنع من الليمون الحامض شراباً حلواً"..
فمن رحم الأوجاع ولد إبداعها وحلّق القلم بالكلمات..
عادت للحياة من جديد.. بُعثت من مرقدها.. أصبحت
أقلّ عزلة مع أن شيئاً لم يتغير... ارتفع منسوب السيريتونين في
جسدها.. بدأت الاهتمام بنفسها.. مظهرها.. أدركت أنها جميلة
اختفت هالات الباندا.. وحاولت أن تظل منشغلة طوال الوقت..
أنهت روايتها الأولى.. أسمتها "أوجاع الليال"... وأبصرت

كلماتها النور.. كان اكتتابها يجلس بجوار والديها على كرسي
فخور بها وبما صنعه معها كما هم أثناء توقيع كتابها الأول ووليد
أوجاعها البكر..





وطن بلا شتاء



أضاءت السماء بنيران ممزوجة بأول قطرات الشتاء... فشتاء فلسطين مختلف... سماء الوطن تمطر رصاصاً قذائفاً تسقط على الأرض تختلط بالدماء... ثم تعود إلى السماء محملة بسحب الشهداء... لتمطر ثانية ثورة وغضباً... شتاء الوطن بارد كالمخيم... شتاء يمتزج بدموع الأمهات الشكالي والأرامل والأيتام... تمطر السماء في الصيف... في تموز في آب وفي كل الفصول... تمطر كل يوم شيئاً يشبه كل شيء إلا الشتاء... أما آن للسماء أن تمطر سكينه لترتوي الأرض وتزهر أحلامنا المتعثرة... وأن يلتقي الشتاء بالوطن... لكننا رغم كل شيء... نبحث عن الحياة ونتزعجها من بين صخرة الموت... يتأخر الغيث.. نروي الأرض بأرواحنا... تنبت الأرض الخاوية... الحياة في هذا الوطن تستمر رغماً عن كل شيء...

شتاء ووطن... جمعهما العمل.. ووحدهما حب فلسطين... كانا قد التقيا قبل عام من الآن في يوم يشبه هذا اليوم الماطر... شدته شتاء منذ الوهلة الأولى... كانت الشتاء بجماله.. ببياضه.. بسكونه.. وفي أعماقها دفء مبهم... جميلة كالوطن الحزين... وكان يبصر في البحر الأزرق في عينيها فلسطين كاملة من شمالها

لجنوبها... غيابها برد.. وقربها شتاء دافئ... يجاذب وطن أطراف الحديث معها في الأمور التي تجمعهم فلسطين ومهنة الصحافة... يطيل دقائق العمل معها ليمضي وقتاً أكثر... لكن دائماً يمر الوقت مستعجلاً... وكانت شتاء تلمح في عيون وطن الحاملة وطناً وسكناً لها ورجلاً تعلق عليه أحلامها ومستقبلها...

كان حبهما حلماً على قيد الأمل... ولا تزال حكايتهم تتشرب كلمات الحب الأولى... وامتزجت روايتهم بحب الوطن.. بالحياة.. بالحرية.. بالأحلام.. وبزهر اللوز والياسمين...

كان وطننا قد اختار من هذا اليوم موعداً ليعلن لشتاء حبه.. ليقدم لها خاتماً.. لتقبل به وطناً لها.. وقد اختار من أعتاب المسجد الأقصى وساحاته مكاناً ليعلن فيه رباطهم المقدس.. وليوثقوا ارتباطهم بالأرض التي جمعتهم.. سيشتري لها إكليلاً من الورد تزين به شعرها الكستنائي..

لكن قد تغيرت الخطة.. تعثر حلم وطن... اتصال هاتفي.. لا وقت لتقرير وثائقي عن المسجد الأقصى في فصل الشتاء فقد اندلعت المواجهات مع الاحتلال على مداخل القدس المحتلة.. سينقلوا مكان التصوير.. سيغيروا من وجهتهم... سيعدوا تقريراً

آخر.. عن الانتفاضة.. عن الاحتلال.. بطولات الشبان.. وحلم الشهادة... سيأجل وطن حلمه ويختار موعداً آخر ليعلن لشتاء حبه..

عندما يستشهد أحدهم.. يتسابق الصحفيون لالتقاط أفضل صورة لذلك المشهد... أكثر صورة تعبر عن الفاجعة التي حلت بأهله... يترصدون تلك اللحظة التي ستضمه به والدته للمرة الأخيرة.. أو والده الذي يحمل طرف نعشه بيد وبالأخرى يمسح دموعه ليصير جيداً الطريق أمامه... نحيب زوجته المسكينة.. صغيره الذي لم يدرك بعدما الذي حصل ولكنه يتشبث جيداً بطرف ثوب أمه ويكي لبكائها... يتسابق الناس على مواقع التواصل الاجتماعي لاختيار أكثر صورة معبرة بنظرهم... وينتقوا بدقة العبارة التي سترافق تلك الصورة.. دون الأخذ بالحسبان مشاعر تلك الأم التي قد تشاهد صورة ابنها وهو أشلاء متناثرة تكسوها الدماء ومتهكين خصوصية تلك الفتاة أو الأرملة بنشر صورتها دون إذن منها.. دون وعي تلك الأمور جردتهم من مشاعرهم.. جردتهم من إنسانيتهم.. أصبح كل همهم الشهرة وجذب الانتباه.. ونسوا قضيتهم الأساسية... نسوا أنهم في هذا الوطن إخوة..

كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضواً تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى... لقد تغير الوطن.. وتغير أبناء الوطن.. وتغيرت مهنة الصحافة والإعلام قليلاً إلا أنه ما زال البعض يحافظ على قدسية تلك الرسالة...

رافقت الكاميرا وطناً وشتاء في مختلف رحلاتهم... يجوبون المدن والشوارع... يذفون الأروقة والزقاق مهما كانت العوائق... يرصدون الحياة هناك بعدستهم... يرسمون الوطن بكافة صوره وألوانه... جسدوا أحزانه وأبهى أيامه... كل صورة وكل مشهد تجعلهم أكثر التصاقاً بالوطن... وكان تعلقهم يزداد بالأرض مع هذه المغامرات كل يوم...

تسارع الصحفيون لتغطية المواجهات مع الاحتلال في طرف من أطراف مدينة القدس المحتلة.. واحتشد وطن وشتاء مع طاقم العمل عند أقرب مسافة يسمح للصحفيين التواجد فيها... اشتدت المواجهات... اندلعت النيران... سكنت الأصوات إلا من صوت القذائف والرصاص.. ودوي سيارات الإسعاف.. وهتافات الشبان وتكبيرهم... يهتفون.. يرمون الحجارة... يئن بعضهم من الألم وبعضهم من الفزع... نظراتهم تخلو من الموت... أطفال

ينتشرون في كل مكان... طفولة متعبة ومشتتة.. وطن مسلوب..
وأحلام متعثرة... لا مكان للراحة في هذا الوطن... البرد يقرص
الأجساد في هذا المساء الماطر... اقترب أن يهبط الظلام.. وتلون
السماء بالسواد..

تحدق شتاء في الفتية.. تتهياً لإعداد التقرير الإخباري مع طاقم
العمل... لطالما كانت تسأل نفسها ذات السؤال عند كل مرة.. كيف
يمكن لشاب أعزل لا يحمل سوى حجر صغير وقلب معلق بوطنه
أن يقف أمام هذا الكم الهائل من الجنود وأسلحتهم العملاقة...
في تلك اللحظات الدقيقة... التي يجهل فيها الجميع ما سيكون
مصيره... كيف يشعر... هل يستشعر بأن شبح الموت قريب منه..
يقف ويترصده ليصطاده في أي لحظة... كيف يمكن للابتسامة ألا
تغادر شفثيه أثناء ذلك المشهد المخيف الذي يرجف فيه قلبها وهي
محتمية مع طاقم التصوير... فكيف بقلبه هو... كيف يدق في تلك
اللحظات... وهل من الممكن أن نبضاته أيضاً اعتادت على ذلك...
تساءلت.. هل فكر بأنه من الممكن ألا يعود إلى بيته.. غرفته..
سريره.. وحضن أمه... هل فكر بالندبة التي سيتركها بقلب أمه...
وبالفراغ الكبير الذي لن يسده أي شيء... ماذا لو كانت تعد له

وجبتة المفضلة.. حمامه الساخن.. ملابسه التي سيرتديها في الغد.. ثم ماذا؟!... يعود إليها محملاً على أكتاف رفاقه... يعود إليها جسداً دون روح!!... هكذا يغادر دون أن يودعها...

لطالما كانت تتساءل.. ماذا تعني فلسطين بالنسبة لهم... ما تعريف الوطن في قاموسهم.. وهل الوطن جدير بأن يحمل هؤلاء الشبان حجراً ويموتوا في سبيله... كيف يمكن لمن لم يذق مرارة النكبة والهجرة بأن يصنع من حجره الصغير سلاحاً ومن جسده درعاً... كيف يمكن لمن لم يبصر من بيت أجداده سوى مفتاح العودة بأن يقطع عهداً على نفسه بأن يعيد البيت والأرض... كيف يمكن لمن لم يزر القدس يوماً أن يشعل حرباً لأجلها بل ويموت لأجلها... كانت الإجابة التي تنهي بها دائماً النقاش داخل رأسها... بأننا في فلسطين نولد ويولد حب الوطن فينا... نكبر ويكبر معنا...

تجوب شتاء المكان... تفتش عن الموت بين الوجوه...

متى يزورنا الموت؟

عندما ننسى أن الموت قد يداهمنا... عندما نجهده بعيداً عنا وقریباً

ممن حولنا...

هل الموتى يتألمون أم نحن فقط من يتألم من بعدهم؟

سيألمون وبعدها ينتهي الأمر... أما أحباءهم سيظلون يتألمون
دهراً...

أين هو الموت؟

على مقربة منا... أقرب مما نتصور... يراقبنا بصمت يوحى لنا
أنه تجاهلنا... لكنه لا يتجاهل أحدا... يقف كشبح خفي ويطرصد
اللحظة المناسبة...

يقف وطن متكئاً على جدار.. يراقب شتاء من بعيد.. يلتفت
إليها من خلال الكاميرا ويبصر الوطن من خلال عينيها... لما لا
يعلن جبهما وسط الحرب والدمار!!!.. لما لا يبدأ الحياة من وسط
الموت... ألا نستحق أن نعثر على السعادة في هذا الوطن المتعب...
أما من نهايات سعيدة... لما كل هذا الشقاء... لما نفني أعمارنا
بانتظار السعادة... وقد لا تزورنا... فلنصنع السعادة بأيدينا رغماً
عن كل الظروف... رغماً عن الحرب والاحتلال...

أضاق الوطن عن احتواء حلمهم الصغير؟..!

ينظر إلى شتاء.. تتعاقب نظراتهم... لا يعكر هذا المشهد سوى

همسات الزملاء « هل نبدأ التصوير؟ »..

استعدت شتاء... رفعت وجهها أزاحت خصلة شعر تغطي

عينها... عدلت كوفيتها... واختارت أكثر المناطق التي تضج
بالموت.. لتجسد للعالم صورة فلسطين وصورة الموت الذي يملأ
أرضها كل يوم... أضاءت الكاميرا... استدارت نحوها... أعطاها
وطن الإشارة لتبدأ...

ثلاثة..

اثنان..

واحد..

أكشن..

رتبت الكلمات لتصف الموت... اختارت كيف تصويره...
سقطت من السماء قذائف المطر... كالشتاء... واختارت من
جسد شتاء وطناً لها... هوت على الأرض... ارتمت بجسدها
كله... جسدت صورة الموت... جسدت الحب... حب لم يعلن...
لم يبصر النور بعد... جسدت الأحلام التي لا تكتمل... وجسدت
صورة وطن سيظل بلا شتاء...

للنشر والتوزيع

وراء الستار



يقف خالد مستعداً خلف منصة التكريم .. يخرج أوراقاً من جيبه ويبسطها أمامه .. منسوب الأدرينالين في جسده بلغ أعلى مستوياته .. تتزحلق قطرات حارة من أعلى وجهه وتبلل ياقة قميصه .. لا يسمع سوى صفير أنفاسه المتلاهِثة .. وقرع طبول حجيرات قلبه ..

استدارت العيون كلها نحوه .. وتهيأت الأيدي لتصفيق حار فور انتهائه .. لمع بريق الكاميرات في عينيه .. ألقى كلماته على وتيرة واحدة .. اختلطت بزفيره الحار .. رأسه المثقل كان يسقط رغماً عنه .. من المفترض أنه اعتاد مثل هذه اللحظات ..

استقبله جميع أبناء وطنه بفخر .. واجتمع الناس كلهم إلا اثنان على أمر واحد .. هو أن خالد مثال يحتذى به في النجاح وطلب العلم .. فقد زاده الله بسطة في العلم والذكاء .. بالرغم من صغر سنه فقد أتم السابعة والعشرين ربيعاً من عمره إلا أنه حقق إنجازات عظيمة على مستويات عالمية .. حصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء قبل عامين .. لم تنتهي مسيرة ارتوائه للعلم عند هذا الحد .. تعاقبت الأبحاث تلو الأخرى .. حصل على براءة اختراع ضمن مجال تخصصه .. ونقش اسمه بين أكبر علماء هذا

العصر .. تسابقت الجامعات والمراكز لاستقطابه .. شهادات تقدير
من مختلف بقاع الأرض تكومت في مكتبه ..

يهتف الناس في سرهم وجهرهم يا ليت لنا مثل ما أوتي خالد
.. إنه لذو حظ عظيم .. أي أم وأب يتمنى ابناً كخالد .. أي شاب
وفتاة يحلم بمستقبل كمستقبله .. وأن يكونوا يوماً ما مكانه .. ولكن
أكثر الناس لا يعلمون ..

تتم بذكر والديه في نهاية خطابه .. نسب الفضل لما وصل إليه
في حياته لله ثم لهم .. إنه فقط خطاب روتيني يردده الجميع ..
وخلف الكلام دائماً حقائق غائبة ..

يتقلب ببصره ذات اليمين وذات الشمال .. يبحث عن والديه
بين الحشود .. تتضاءل الوجوه من حوله وتنكمش .. يتلاشى المشهد
لا يرى سوى غباش .. تضيق ربطة العنق حول أنفاسه .. ينكمش
جسده بعضلاته المفتولة .. تسقط دمعة دون وعي منه .. إنها ليست
دموع الفرح .. إنها تشي بشيء واحد فقط .. الانكسار ..

ودّ لو يراهم في الصف الأول ..

ودّ لو يرى نظرة الفخر بأعينهم ولو مرة واحدة ..

قد بلغ الحزن أشده .. وقد سئم الانتظار المرّ الذي لا ينتهي ..

يقف دون كتف يسنده .. يتكور حول نفسه .. يبدو كعصفور
انكسر كلا جناحيه .. يرغب أن يذرف الدموع أمام الملاء كله
ويصرخ بأشد ما أوتي من صوت « أقنعوا أمي وأبي بذلك كله
».. فثناء الناس ومديحهم له لن يغني ولن يسمن من جوع .. لو
اجتمعت الأمة كلها على نجاحه سيظل بنظر والديه ذلك الفاشل
الذي صنعوه في مخيلتهم..

عندما يزورك الفرح في وسط حزنك أحسن استقبال ضيفك
.. تجاهل الحزن قليلاً .. توقف عن التفكير به .. أشغل نفسك كلما
عصفت بك ذكرى مؤلمة .. لا تنظر للخلف أبداً .. لأخطاء الأمس
.. آلام الماضي .. الأشخاص الذين تركونا .. فقط ركز في يومك
هذا وبنعمه .. إنه هدية من الرحمن فأحسن استقبال هذه الهبة ..
وقابلها بالشكر والفرح .. فالله لا يرضى لعينيك كل هذا الحزن ..
أحياناً الوقت كفيف بأن يداوي جروحك ويساعد على التئامها
حتى تشفى تماماً .. وأحياناً قد يكون أقصى ما تستطيع فعله عند
مواجهة المحن أن تصبر وتتماسك وتترك الباقي للوقت لينسيك
مرارة ما عايشته .. إنها فقط مسألة وقت .. كل هذا سيمضي .. كل
هذا الألم سيزول .. وستنسى ..

ستنسى كل جروحك وأوجاعك .. أما جروح الطفولة فستبقى
عالقة في الذاكرة..

ستنسى من ظلمك .. لكنك لن تنسى عندما يكون الجاني أحد
والديك..

ستسامح لكنك لن تنسى أبداً..

لن ينسى كلماتهم المدججة التي ارتسخت في ذاكرته والتي ما
انفكوا يدسوها في عقله «أنت فاشل» .. «أنت دون فائدة» .. «كن
مثل ابن الجيران» .. مع أن ابن الجيران لم يكمل تعليمه ولم ينجح
بأي شيء في حياته .. لن ينسى محاولاتهم المتكررة في مقارنته
بأبناء أحد الأقارب والمعارف مع أنهم جميعهم يغطوه لما وصل
إليه ويتمنوا أن يكونوا مكانه ..

لن ينسى بحار الدموع التي ذرفها .. وديان الأوجاع التي نزعها
.. وكأس الانهزام الذي تجرعه كل ليلة..

ظل يتلقى الصفعات والخيبات طوال سنواته .. وما انفك كلا
والديه بتقزيم نجاحاته وإنجازاته.. وصلب أحلامه .. ما تعريف
ال فشل والنجاح في قاموسهم .. ما الصورة الواضحة للشخص
الذي أرادوا أن يكونه .. ما الذي أعمى بصيرتهم عن رؤية كل

إنجازاته .. تتراكم التساؤلات داخل رأسه .. ستبقى أسئلة دون أجوبة ..

سئم محاولاته البائسة في استرضاءهم وجذب اهتمامهم .. واختلاق الأعذار لهم كل مرة .. سئم جحيم الوحدة والانزواء .. أين المشكلة لو اعترفوا بتميزه عن أقرانه ولو لمرة واحدة .. هل سيتنقص ذلك منهم شيئاً .. كان من المفترض أن يكونوا أكبر داعم له .. لو أظهروا مشاعرهم الحقيقية ما الضير في ذلك .. أليس الوالدين أقرب الناس لنا .. القرآن كتب علم النفس والاجتماع كلها أقرت بذلك ..

يقدم المؤتمر درعاً لخالد .. يصفح الأيدي .. ودّ لو يتوارى عن الأنظار قليلاً ليختلي بنفسه ويبيكي .. لكن الرجال لا يكون لا يضعفون ..

كان يعود طفلاً كل ليلة بعد أن تنام العيون وتطلع النجوم .. يبكي سراً بالخفاء .. يتجرد من سنواته السبع والعشرين العجاف .. لقد عاش حياته كلها فاقداً للحب كما عاشها أيضاً مانحاً له .. ما ذنبه ليحرم عطف وحنان والديه ..

شعر برغبة ملحة بأن يحزم أحلامه وذكرياته ويوثق رباطها

ويلقها في حفرة ما ويضرم النيران فيها .. سيمزق كومة النجاحات
والانجازات ولتذروها الرياح .. فهي لم تنجح بأن ترضي والديه
عنه وسيبقى فاشلاً بنظرهم .. كما أنها لم تغير من نظرتهم المنتقصة
إزاء نفسه وسيظل إنساناً مشوهاً محترقاً في دواخله.....

كأوراق الخريف



كانت تمشي دائماً مبتسمة... تنتظر الشتاء بشوق لتسقي أحلامها... فتزهر وتكبر معها ابتسامتها... كانت تحب الحياة كثيراً وتستقبل كل يوم وكأنه حياة جديدة... وبداية لكل ما تنتظره... كانت تبصر الحياة بعينيها الجميلتين فلا ترى إلا ما هو جميل... لكن الشتاء تأخر جداً هذه المرة... طال انتظارها... وطال معه ليلها وسهرها... تبدل كل شيء... حتى تلك الابتسامة اختفت... فلم يتبقى منها إلا بقايا خطوط ظلت محفورة لتذكرها بماضيها... وحتى لا تنكر بأن السعادة قد مرت ببابها يوماً...

أصبحت تهاب من كل شيء... تخشى النظر إلى المرأة فتبصر وجهاً شوهدت معاملة قسوة الأيام... وباتت تخشى أن تنام... حتى لا تستقبل يوماً جديداً مرّاً وطويلاً كسابقه... وعندما جاء الشتاء... جاء هذه المرة متأخراً... لم تستقبله كعادتها... فوتت عليها منظر سقوط أول زخاته... ورائحة امتزاج قطراته مع التراب... أغلقت نافذتها جيداً... فلم يصلها منه إلا برودته القارصة... وظلمته الكئيبة... فقد عاد الشتاء هذه المرة مختلفاً... وبدل أن يسقي أحلامها جر تلك الأحلام مع بقايا أوراق الخريف إلى الضياع والنسيان...

ما عاد لوقع قطرات المطر أي أثر على قلبها... لم يعد صدها يهز مسامعها... لم تعد تشدها رائحته الندية... عاهدته على أمنياتها... شاطرته أحلامها... وآمنتها على أسرارها... لكن قد خانها الشتاء... وباتت قطرات المطر ذاتها التي كانت تسعدها بالأمس... أما اليوم فقد أبكتها... أبكتها كثيراً...

تقف بصمت في زاوية من غرفتها... يجرها الضوء الخافت المنبعث من شاشة الحاسوب... تعيد قراءة رسالته للمرة المائة ربما... تتساءل بصمت ما الذي حمله على مراسلتها بعد هذه السنوات... أما زالت تتردد على ذاكرته... هل من بقايا حب تسكن قلبه... هل بالفعل اشتاقها ويرغب حقاً أن تعود المياه لمجاريها... ليصلح كل شيء ويرمم ما انكسر...

جاهدت نفسها كثيراً على نسيانه... خمس سنوات... تركها تعاني آلام الفراق والانفصال وحيدة... لم تشف ولم تلتئم جراحها... مع أن الوقت قد يكون في بعض الأحيان كفيلاً بترميم بعض الكسور... تغلق الباب على نفسها كل ليلة... تعود لأحزانها وخيبتها السرمدية... تتجرد من ابتسامتها الزائفة... تتحرر من ثياب القوة... تبكي تفيض دموعها كل ليلة...

فعندما يتخلى عنك من تحب... قلبك لن يعود كالسابق... لن يعرف بعد الآن طريقاً للحب ثانية... لن يذوق طعم السعادة من جديد... سيغدو كطفل فقد أمه... يبكي مراراً على ذات الشيء... دون استسلام دون انقطاع... لا دمية ولا طبق من الحلوى سيخفف دموعه... لأنه أدرك أنه ما من عودة... لا شيء سيرجع كالسابق...

تستيقظ ليلاً بعد أن تنام العيون... وتطلع النجوم... تصلي وتسجد... تدعو الله أن يجمعهم ثانية... وتروي آمالها بأمطار الشتاء... انتظرته طويلاً... تمت كل يوم أن يعود... وأن يولد حبهم من جديد...

ترى هل ذرف دموعاً واحدة لأجلها؟... وإن فعل ما قيمتها أمام الدموع التي فاضت من مقلتيها كل ليلة؟ احتاج هو البعد ليدرك أنها من يريد... احتاج أن يكون مع امرأة غيرها ليدرك أنها من أحب... استطاع أن يكمل حياته بعيداً عنها... أن يتزوج من جديد... بيد أن البعد شوه أعماقها... شق طريق الأحزان في دواخلها... سلب الابتسامة من ثغرها... جعلها تقف حائرة لا تقوى على مواجهة

الحياة... عاجزة عن الإقدام على أي خطوة جديدة... وكأن حبه
ذنبت ابتليت به... واحتاجت للفراق لتكفر عن ذنبها هذا...
تأملت وجهها الشاحب في المرأة... وضعت بعض الكحل
لتزين تلك العيون التي أمست شاحبة بعد أن فارقها... أمسكت
مقصاً... شدت خصلة شعر وضمتها بين ذراعي المقص...
أصعب خطوة قد تقدم عليها المرأة في حياتها هي أن تقص شعرها
الطويل... تستعد أن تخسر كل شيء إلا خصلات شعرها... ومع
ذلك تجازف... على أمل الحصول على نفسية متزنة... بدايات
جديدة... لا أحد يعلم السر والرباط بين البدايات وقص الشعر...
حتى المرأة ذاتها تجهل ذلك... ربما لتشاهد شخصاً تغير في أعماقه
كما تغير مظهره الخارجي... ولتغدو شخصاً مختلفاً لا يشبه ذاته
القديمة أبداً...

تساقط خصلات الشعر... تبدأ مرحلة البكاء... ربما ستتجنب
مرآتها في الأسابيع الأولى... تنشغل بشعرها عن مشاكل الدنيا...
ثم تعتاد الأمر في النهاية...

أسقطت بقايا حبه مع خصلات شعرها... لفظته مع كل قطرة
مطر... ألقت مع بقايا الخريف... دعت الله هذه المرة أن ينتزع حبه

من قلبها... وأن يتخير لها بدايات جديدة غير مؤلمة... لقد كان كل أحلامها... لكن سيأتي وقت نتخلى به عن أحلامنا بمحض إرادتنا... ستكون بين يدينا لكن قد فقدنا ذاك الشعور... الشعور هو ما يجعلها ذات قيمة في دواخلنا... وليس الأحلام ذاتها...

تدرك جيداً أنك تغيرت عندما تتحقق أحلامك التي لطالما تمنيتها... فتشيخ ببصرك عنها وتقول "لقد تأخر الوقت.. ما عدت بحاجتك"... فهناك أحلام تقف بين حياة القلب وموته... كجرعة دواء... قد تسعف قلبك بأصعب لحظاته... وتنتشله من بحر الغرق إلى أرض السعادة والفرح... لكن قد تأتي هذه الأحلام متأخرة... بعد أن توقف النبض فما عاد أي عقار أو علاج يعيد الروح بعد أن فارت الجسد...

ستترك رسالته دون جواب... كما تركها للمجهول سنين عدة... غدت ناضجة القرار لعقلها لا لقلبها... لن تقدم على المزيد من الخطوات الغبية...

اعتادت أن يسري في عروقها مثل الإدمان... كالمخدر... عانت أثراً بعد انسحابه... ثم شفيت... شفيت تماماً من حبه...



وانقضى الربيع



مرّ عامٌ... لم أكن أعلم أنك في غربتي ستكبري مئة عام!!
لم أدرك أن الوحدة قتلتك...
تلك الخطوط العميقة هل نبتت في هذا العام... أم أني لم أنتبه
لوجودها مسبقاً.

ملا محك باتت أكثر وهناً... خطواتك أصبحت أقل اتزاناً...
ومشيتك أكثر انحناءً... فقدت الكثير من وزنك... اشتد ضعف
بصرك... حتى صوتك تغير... لم ألحظ تلك البحة من قبل...
لم أعهدك تسين الأسماء... وتخلطين القصص والذكريات...
ظلت تتردين منديلاً لتخفي عني البياض الذي غزا شعرك...
كيف هرمتي بسرعة؟... أم أني لم انتبه لذلك من قبل...
أكل هذا حدث في غيابي... ذاك السواد حول عينيك
هل هو فعلاً من القهوة... أم من بكائك وحيدة كل ليلة على
وسادتك؟...

تغيرت كثيراً... لكن لا زال البيت كما هو... لا زال سريري كما
غادرته... لا زالت أغراضي مكانها تماماً كما تركتها... لا زالت
صورتي التي علقتها على باب الثلاجة في ذات المكان... لا زلت
تحتفظين بكأسي المفضل بالرغم من أنه مكسور بعض الشيء... لم

تغيري من مكان أي شيء...

كنت قد اتخذت قرارى قبل عام بأن أكمل دراستى فى الخارج...
بالرغم من معارضة أمى فى بداية الأمر... إلا أنها فى النهاية وافقت
مكرهه لأجل سعادتى وتحقيق أحلامى.

ولأنى كنت الصغيرة بين إخوتى، فقد شاهدت حزن أمى وألمها
عند مغادرة كل واحد منا البيت، أذكر المرة الأولى عندما تزوجت
شقيقتى الكبيرة... كنت قد طلبت من أمى أن آخذ غرفتها لكنها
رفضت، وظلت تنام على سريرها لأيام، كنت أراقب حزنها
وبكاءها كل ليلة... وبعدها غادر البيت إخوتى الثلاثة متتابعين...
وفى النهاية أنا... ولا شك أنها المرة الأصعب، فمن المؤلم كان أن
تبقى وحيدة.

مخيف البيت بدوننا... يحوى أشياءنا وذكرياتنا... لكنه خالٍ
منا... كل زاوية فى البيت تذكرها بنا... قد يبدو البيت بمثابة سجن
بالنسبة لها... أو كمنزلة يضجّ بالأشباح... موجه أن تجلس كل
صباح على مائدة الطعام هى وخمس مقاعد فارغة...

اليوم كان أول مرة أسأل نفسى هذا السؤال: هل لدى أمى أية
أمنيات لنفسها وليس لنا؟ هل هى كباقي البشر تريد أن تحقق أمور

لذاتها؟ تريد أن تهتم بنفسها؟ ... كيف يمكن للحياة أن تجردها من الـ (أنا)؟ كيف تنسيها أنها مخلوقة ولها احتياجاتها ورغباتها؟ اليوم أدركت أن أمي تعيش فقط من أجلنا ولم تفكر بنفسها أبداً... تشعر بألماً قبل ألمها... يؤلمها جرحنا فتنسى مرضها وجرحها لتكون قوية إلى جانبنا...

هل توقف إحساسها بذاتها عندما جاءت بنا إلى هذه الدنيا وأصبحت كائنات حيا لا يشعر بوجود نفسه أبداً... أصبح كل هدفها أن تهتم بنا على حساب راحتها وسعادتها... وأن تضحي بكل ما تملك في سبيل أن نبلغ أحلامنا وراحتنا...

بدأت أشك هل هي كباقي البشر تشعر بالتعب؟! بالمرض؟! بالرغبة في النوم والراحة؟! لا أدري متى كانت آخر مرة زارت فيها طبيباً لتطمئن على صحتها... متى أعدت وجبتها هي وليس نحن المفضلة... بل حتى لا زلت أجهل ما هي وجبتها المفضلة... لكنني متأكدة من أمر واحد بأننا أغلى ما تملك...

بمقدار شوقي وفرحي لعودتي للمنزل اليوم... بمقدار ما اعتصر قلبي ألماً لرؤيتها على هذا الحال... أي حياة هذه التي تكافئ من

أفنت روحها وجسدها لأجل أبنائها بأن تكمل ما تبقى من عمرها
وحيدة، هل هي الحياة أم نحن الأنانيون؟

اجتاحت ذاكرتي مشاهد طوتها السنين منذ أمد، وراحت
تعصف بذاكرتي دون موعد مسبق، لا أدري ما الذي جعلها تطرق
باب ذاكرتي، هل هو عقاب تم تأجيله أم أن منظر أُمي البائس اليوم
جعلني استرجع شريط الذكريات.

عدت بالذاكرة إلى الوقت الذي طلبت مني أن أساعدها في
استخدام الهاتف المحمول، تذكرت قلة صبري وزفيري عند كل مرة
كانت تفشل فيها، اكتفيت بتعليمها الرد على المكالمات وإجرائها،
رأيت أنه من الصعب عليها كتابة الرسائل أو قراءتها، أو إرسال
الصور وتصفح الإنترنت.

تذكرت صراعاتنا عند كل مرة نذهب فيها سوياً إلى السوق
لشراء ملابس جديدة لي، كررت جملة المعتادة: «ذوقك من
العصر الحجري يا أُمي»... دون أن أبه إن كنت أجرحها بتلك
الكلمات أو أقلل من رأيها، كان كل همي أن أنتقي بنفسني الملابس
التي تعجبني، وبالنهاية كانت تشتري لي أُمي ما اخترته، كان ينبغي

على الأقل أن أجرب تلك الثياب التي اختارتها، أو أن لا أجرحها
كعادتي بكلماتي القاسية.

سامحيني يا أمي عن كل مرة أفرغت غضبي عليك، فقد كنت
بدلاً من أن أشكولها وأبوح بمشكلكي أخلق أخرى لأفرغ مشاعري
وغضبي أمامها، وكنت في نهاية المطاف أنفجر باكية، لتأتي أمي
كعادتها تحتضنني وتمسح على رأسي.

استقبلتني اليوم بفرح شديد، وأعدت لي طبقي المفضل، ثم
جلسنا سوياً نشرب القهوة، لم تعد كالسابق توبخني عند كل مرة
أشرب فيها القهوة، بل أعدتها هذه المرة بنفسها وقدمتها لي، فبعد
أن تركت البيت لم تعد توبخني أبداً، وكأنني أصبحت غريبة عنها.
باتت محادثاتنا على الهاتف في الآونة الأخيرة مقتصرة على
سؤالها عن حالي... صحتي... إن كنت تناولت طعامي... أو إن
كنت بحاجة إلى المال... لم يكن لدي متسع من الوقت للحديث
والاستماع إلى كل الأمور التي تريد قولها أمي، مع أنها استطاعت
أن تجد حيلاً لتطيل المكالمة معي واختلاق مواضيع عدة، إلا أنني
انشغلت بنفسي... صديقاتي... دراستي عنها...

كيف كنت قاسية إلى هذا الحد؟... كيف تجردت من إنسانيتي

كل ذلك الوقت... هل هو البعد ما يجعل المشاعر تنطفئ؟... لكن مشاعر أُمي لم تنطفئ أبداً... ظلت تحبني بالرغم من كل شيء... ولا زلت طفلتها المدللة.

الأيام الأولى من جامعتي هي الأصعب، لم يكن هناك من يمسح دموعي ويشاركني حزني، كانت صلواتها تصلني، وكانت دعواتها عند الفجر تدثرني، وكنت أشعر بيدها الحانية تمسح على رأسي كل ليلة وتنفض بها المعوذات علي.

لكن بمرور الوقت اعتدت غيابها... أحن لها في لحظات... وانشغل عنها أغلب أوقاتي، اعتدت أن أفقدها أكثر شيء وقت حزني ووقت نومي.

كانت الصدمة الكبيرة في ذات اليوم الذي وصلت فيه المنزل، كنت مستلقية على سرير لي لأرتاح قليلاً من عناء السفر، قبل أن نستقبل إخوتي عند المساء، فتحت عيني، كانت أصوات تنبعث من المطبخ، بدا كصوت كأس أو ربما طبق انكسر، تكرر الصوت ثانية بعد دقائق، من المستحيل أن أُمي كسرت شيئاً، في حياتها كلها لم تكسر صحناً كانت شديدة الحرص دائماً، والآن تكسر اثنان في ذات الوقت!!

نهضت من سريري وتوجهت للمطبخ... كانت أُمي تغسل الأطباق... ويدها ترتعشان بطريقة مفزعة... انتزعت من يدها الصحون وقلت سأكمل عنكِ... تراجعت بضع خطوات للوراء، وبعدها جلست على الكرسي، تناولت سكيناً لتقطع الخضار على الطاولة، حاولت أن تشغل نفسها بأي شيء وتصرف تفكيري عن الحال الذي رأيته عليه، بدت الطريقة التي تحمل بها السكين غير مستقرة، واستمر ارتعاش يديها، وازدادت حدته.

لم أُر في حياتي مسبقاً أُمي هكذا... بدا وجهها شاحباً وخائفاً... سقطت كلتا يديها وتصلبت أطرافها... وتسارعت أنفاسها... وكانت تعجز عن إبداء أية حركة... سوى تلك الحركة المتكررة اللاإرادية لكلتا يديها... لم تستطع أن تسيطر على وضعها... حاولت أن تمسك طرف الطاولة لتسكن حركة أصابعها... لكن الطاولة أيضاً أخذت في الاهتزاز...

احتضنت جسدها الهزيل، وقبلت وجهها الذي بات متشنجاً من الخوف وربما من الألم... وغرقت في نوبة من البكاء...

- أُمي هل أنت بخير؟

أجابت: نعم... إنه فقط من تأثير القهوة.

-كل هذا من القهوة!!

-يبدو أنني شربت الكثير منها، وربما لأنني لم أنم جيداً بالأمس
لشدة فرحي عندما علمت بقدمك، سأذهب إلى غرفتي لأرتاح
قليلاً.

كانت تجيد جيداً اختلاق الأعذار...

فتحت باب غرفتها وألقيت نظرة خاطفة عليها... نظرت إلى
جسدها الهزيل المستلقي على طرف السرير... اقتربت وحدقت
في وجهها... تأملتته وكأنني أبصر جزءاً من الجنة... رغبت بأن أقبل
تلك الأخاديد المحفورة على جبينها... وأقبل عينيها الداكنتين من
تحت طيات التجاعيد... وأن أمد أنا ملي لأتحسس كل جزء منه...
لا زلت أجهل تفاصيله... فقد خط الزمن خارطة ارتسمت عليه...
وأبدل ربيع به خريف شاحب...

رغبت أن ألقى بجسدي على السرير وأنام بجوارها كما لو أنني
لا زلت طفلة... إلا أنني خشيت أن أوقظها.

اجتمع أفراد الأسرة في المساء بعد وقت طويل من الانقطاع،
انهمكت أُمي بالطهي وتحضير الطعام وغسل الأطباق، وجلسنا

بانتظارها لتنتهي ما بيدها وتشاركنا الحديث، كانت تردد دائماً مازحة: إن لم تجمعنا الأفراح ستجمعنا حتماً المصائب.

لاحظ الجميع شحوب أمي وذبولها، وأصر شقيقي الأكبر بأن نأخذ أمي إلى المستشفى للاطمئنان على صحتها خاصة عندما أخبرت الجميع بما حدث معها اليوم.

تنقلنا من مستشفى لآخر لمعرفة سبب ما حدث، وبالنهاية أخبرنا أحد الأطباء أمراً صادماً.

-أمكم مصابة بمرض باركنسون (الشلل الرعاشي) منذ وقت طويل.

وأشار إلى بقعة مضيئة في صورة الأشعة تدل على ذلك، بعدها شرح للجميع عن ماهية هذا المرض.

-باركنسون مرض مزمن في الجهاز العصبي، لأسباب مجهولة يتوقف الجسم عن إفراز مادة الدوبامين كالسابق، لا علاج له لكن يتم إعطاء المريض بعض العقاقير التي تخفف من حدة أعراضه، لكن هذه العقاقير بعد عدة سنوات من العلاج لن تجدي أي نفع، وغالباً يتم توقيفها، سيعاني المريض من نوبات ارتعاش بكلا أطرافه، قد يسقط أرضاً، وبمرور الوقت قد يعاني من صعوبة في المشي، فقدان

للتوازن، وقد يتعذر على المريض القيام بنشاطاته اليومية المعتادة، لذا يحتاج للمراقبة الدائمة، وإلى جلسات من العلاج الفيزيائي بصورة مكثفة.

كانت تجلس صامتة، منظرها يفطر الفؤاد تستمع إلى كلام الطبيب بنحيب مكتوم، تجنبت أثناء حديث الطبيب أن تلتقي عيناها بأي منا، تلك التي ظلت قوية أمامنا كل تلك السنوات لم تشأ أن تهتز هذه الصورة.

كنت وحدي عندما سألني الطبيب عن عمر والدتي لاستكمال الإجراءات الطبية، وقفت مذهولة... مضى من عمري عشرون عاماً، ولا زلت أجهل عمرها أو حتى تاريخ ميلادها... تلك التي لم تنس ذكرى ميلادي قط.

كرر علي السؤال ثانية: المريضة مواليد أي سنة؟؟
لجأت إلى إخوتي وجميعهم يجهلون الجواب مثلي، فتحت حقيبتها باحثة عن بطاقتها.
للنشر والتوزيع
1959 - (58 عاماً).

صرف لها الطبيب بعض الأدوية، وأوصى بضرورة متابعة جلسات العلاج الفيزيائي، ومراقبة تطور مرضها.

غرق الجميع في صمت، وظلت كلمات الطبيب مطبوعة
وراسخة في الذاكرة، تلك التي أفنت حياتها وضحت بكل شيء،
ونسيت وجودها وأحلامها لأجلنا، اليوم ولأول مرة شعرنا
بوجودها وقيمتها في حياة كل منا.

كنت أظن أن أمي ولدت لتكون أماً فقط، لقد غطت مكان الأب
في حياتنا، فلم نشعر يوماً إن كان وجوده سيحدث أي فرق، في
الماضي لم يخطر ببالي أنها إنسان يحمل الأحلام، لقد تخلت عن
كل شيء لأجلنا نحن.

عندما وصلنا إلى البيت ارتفعت أصوات الجميع، وأخذ كل منا
بالصرخ على الآخر، فعندما علم الجميع بمرض أمنا، بدؤوا بتوجيه
أصابع الاتهام كل إلى الآخر.

-لما لم تتفقد أمي أو ترسل أحد أفراد أسرتك، بيتك هو الأقرب منها.
-أنت... أين كنت كل هذا الوقت؟
-أنا!!!... تحدث إلى نفسك أولاً، فأنت لم تتفقد الوالدة منذ
أربعة أو خمسة شهور.

مرت الساعات وأصبح الجدل أقل حدة وضحيجاً، أو يبدو أن
الجميع انطفأ بعد هذا اليوم المرهق.

وبالنهاية كان الحل الوحيد الذي توصل له أفراد الأسرة، هو استئجار ممرضة بدوام كامل للعناية بأمننا، ومراقبة حالها، وإعطائها الأدوية في موعدها المحدد.

لم أحتمل فكرة أن تأتي غريبة كل يوم لتعتني بأمي بدلاً منا، شعرت بغصة في قلبي، لا أحد منا سيضحي بحياته ويؤثر تلك المسكينة التي هي أمننا، فلم يشعر أفراد الأسرة بأنه في وسعهم أن يفعلوا أكثر من تفقد والدتنا مرة أو مرتين وربما ثلاث كل شهر، أو الاتصال بها في عطلة نهاية الأسبوع، وربما سيفقدها أحدهم بهدية أو مبلغ من المال... أو شراء ما يلزمها من أدوية.

غادر الجميع منزل العائلة... وعادوا لاستكمال حياتهم... وسأعود أنا بعد بضعة أيام إلى جامعتي لاستكمال دراستي... وستعود أمي وحيدة ثانية...

في المرة الأولى التي سافرت بها كدت أطيّر من شدة فرحي... لكن هذه المرة سأسافر وأحمل معي حزني، سيظل خيالها يرافقني، وستظل صورتها في ذلك اليوم في المطبخ مطبوعة في ذاكرتي، سيظل بالي مشغولاً بها، من سيرعاها في غيابي، قد تكون مريضة

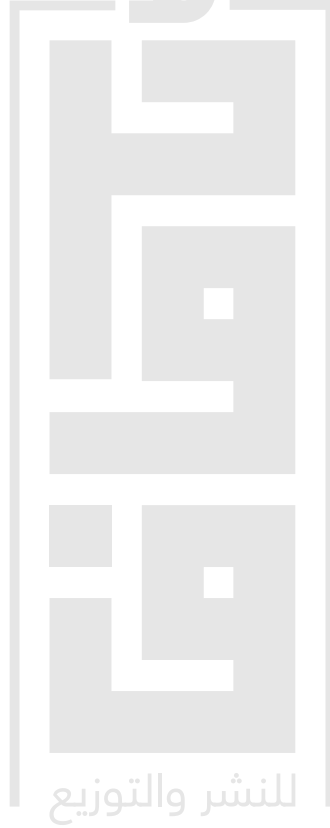
وطريحة الفراش... وربما أوقعت فنجان القهوة الساخن على نفسها، وداست على زجاجة المكسور، ظللت أفكر بكل الأمور التي يتعرض لها مريضاً مثلها يعيش بمفرده، ظلت صورة ارتعاش يديها تتراءى أمام ناظري، تلك اليدين التي لطالما سرحت بهما شعري، وشدت ضفيري، وأحكمت القبض بهما على ساعدي عند كل مرة كنا نقطع فيها الشارع، والآن لم تعد تلك اليد تقوى على حمل فنجان القهوة.

شعرت بأنه من المستحيل أن أكون في يوم من الأيام كأمي... من المستحيل أن أتخلى عن أحلامي وطموحاتي لأجل الأمومة، شعرت أن الأمرين لا يجتمعان سوياً، ربما لم أدرك ذلك بعد لأنني لا زالت شابة يافعة أجهل معنى الأمومة، أو ربما لأنه لا يوجد مثل أمي....

لقد منحتنا كل شيء.. جسدها.. روحها.. مفاصلها.. نظرها.. صحتها.. وعجزنا نحن عن منحها أي شيء..

أتساءل كيف يمكن للإنسان أن يعيش سعيداً دون أن يفكر بنفسه... وأن يهتم بها ويرعاها... ويحقق لها كل ما تريد... أتساءل هل سأكون في يوم من الأيام مثل أمي...

لم يطاوعني قلبي بأن أترك أُمي لأعود لاستكمال دراستي بعد
أن رأيتهَا على هذا الحال... لكن على الحياة أن تستمر...



إكليل الياسمين



نسج الظلام آخر خيوطه السوداء... غاب القمر عن هذه الليلة
الدهماء... سكنت الأصوات إلا من صوت تلاوات خاشعة تسبق
الفجر انبعثت من المسجد المجاور... ومن صوت صليل المفتاح...
أدار القفل ودخل إلى البيت الذي بدا كمكان مظلم منسي بعد نهار
يوم شاق ليبدأ يوماً جديداً... فالتظاهر بالقوة ليس بالأمر الهين...
أخذ يمشي تجره قدماه نحو غرفة ابنه ليث... تسبقه خطواته...
دلف إلى غرفته... تأمل سريره الذي كعادته لم يرتبه... ملابسه
المنتشرة في كل مكان... فوضى تعم أرجاء الغرفة بأكملها...
جلس محتضناً ساقاه داخل صدره... أوصاله ترتعش... يحاول
أن يلتقط أنفاسه... يتحرر من ربطة عنقه... لا سبيل للهواء...
يرتمي بجسده الخائر... اجتاحته نوبة من الصداع... غاب عن
العالم لثوان... تعانقت مقلته بشدة... غاص بالضجيج في مقدمة
رأسه... والذي بدوره شوش على ذاكرته... ألم يسر في ذراعه
اليسرى... وخزات من الإبر تضرب في صدره... يسند جسده
كله بيده اليمنى... اليد التي صافح بها مئات الأيدي اليوم...
يجوب بعينه الغرفة المظلمة... أهكذا ينتهي الأمر... هل هذه هي
النهاية...

يتسلل الضوء من النافذة ممتزجاً بعبق زهر الياسمين المنبعث
من الشجرة المغروسة تحت النافذة... هل هي مصادفة وجود هذه
الشجرة بالذات أمام غرفة ابنه وأيضاً من الناحية المقابلة لمنزل
ياسمين ابنة الجيران... محبوبة ليث منذ الصغر...

سقط بصره على السرير... تأمل ظلال شبحية لجسد مترام
هناك... أمعن في ملامح ليث... في عينيه الغائرة... في الغمازة
اليتيمة على خده الأيمن... في شعره الخروبي وبشرته البرونزية...
لم يتشابه هو وابنه يوماً لا في الملامح ولا في الصفات...

لطالما كان يحلم بأن يرى ابنه طبيباً أو مهندساً... أو على
الأقل مدرساً كأبيه... لم يفهم أبداً سر شغف ابنه وتولعه
في الرياضة... يمكنك أن تتخذ من الرياضة هواية إلى جانب أي
تخصص جامعي آخر... لكنه ابنه المدلل يدرك جيداً أنه في نهاية
المطاف سيخضع لكل أوامره... لم يتفقا أيضاً على الفريق الرياضي
الذي يشجعه كلٌ منهم... كما أنّ ذوقهم مختلف في نوع السيارة
التي يقتنيها كلٌ منهم... في نوع الكتب التي يتصفحوها... البرامج
التلفازية التي يتابعوها...

استطاع أن يدرك بحدسه الأبوي كل تفاصيل ابنه... أن يخمن

كل الأشياء التي يحبها ليث... من ياسمين... فريقه المفضل...
صديقه المفضل.. الأماكن التي يرتادها بكثرة... وأنه يميز والدته
عنه... لكن غاب عنه حبٌ خفي سكن ثنايا قلب ولده واحتل
المساحة الأكبر هناك...

أمسك هاتفه المحمول... عاد ليقرأ آخر ما دونه ابنه على
صفحته الشخصية... تجاهل قليلاً الخبر الذي ضجّت به مواقع
التواصل الاجتماعي هذا اليوم... لقد مرّ على سطور الكلمات
التي دونها ليث في وقت سابق من هذا اليوم متجاهلاً محتواها...
تمعن الحروف هذه المرة جيداً باحثاً عن شيفرة كان من المفترض أن
يفكها في الصباح...

“عندما أفكر بالوطن تتقافز إلى مخيلتي صور الانتفاضة
الأولى.. الثانية.. الثالثة.. حرب غزة.. مشاهد من النكبة..
ومحاولات متكررة لاقتحام المسجد الأقصى..

عندما أفكر بالوطن أتذكر جامعتي التي لا يفصلني عنها سوى
بضع دقائق.. لكن حواجز الاحتلال جعلت المسافة أضعاف ذلك..
أتذكر حصار رام الله.. ولادة أمي المتعسرة.. حظر تجول.. لا
كهرباء.. ولا اتصالات أو مواصلات.. سيارة إسعاف وصلت

متأخرة.. مضاعفات أثناء الولادة.. جنين في خطر.. نقص
أوكسجين.. خلل في خلايا الدماغ.. ثم طفل يعاني من صمم تام
في الأذن اليسرى..

عندما أفكر بالوطن.. أتأمل حال شعب نخره الانقسام
وتناسى قضيته الأساسية.. حتى الأموات لم يتركوهم.. فصلوهم
ولفوا كل شهيد بعلم بلون مختلف.. وضموا كل شهيد إلى فصيل
منفرد.. وزفوه بجنازة منفصلة عن الآخر.. مع أنهم جميعاً شهداء
للوطن ذاته.. للقضية ذاتها..

عندما أفكر بالوطن.. أرى أن شمس الحرية ستشرق.. وأدرك
أن الليل سينجلي.. وأن الشهادة قد تسبق النصر...“
أخذ يبكي بنواح ممزق... ثم عاد ثانية للخبر الذي ضجّت
به صفحات الأخبار... وتأمل صورة شهيد اليوم وهو مزين بإكليل
من الياسمين...

أبي... هل عادت أمي؟



كنا قد قضينا أربعة عشر يوماً تحت الأرض نعدُّ أنفاسنا ونتساءل
إن كنا سنظل على قيد الحياة أم لا؟!...

استمر هطول القذائف من السماء ليفجروا أجزاء من المخيم...
أو ما تبقى من المخيم... فقد باتت أرضنا مرعبة، تعج بالأشباح،
واكتست باللون الأحمر الداكن وخرجت منها رائحة الجثث.

كان مصير أي شخص إما الموت وإما الحياة، وكلاهما لا يرحم
فقد تعيش ليكون مصيرك بعدها إما أسيراً للحرب، أو أن تهرب إلى
طريق مجهول لا تدري نهايته... تهرب دون أن تنظر للخلف...
وبالرغم من كل شيء لا أحد منا يعلم ما ستكون وجهته المقبلة...
كل منا يسعى فقط ليظل على قيد الحياة... ففي الحرب تهرب من
الموت ليعترض طريقك موت آخر... تضطر أن تنجو بنفسك قبل
أن تدرك لماذا علينا أن نحيا...

لقد عشنا كلاجئين طوال سنوات حياتنا في مخيمات الفلسطينيين
في سوريا... وهانحن اليوم نكرر ذات المأساة ونتجرع مرارة الهجرة
ثانية... وألم النكبة من جديد... فمعاناتنا نحن الفلسطينيون جزء
ثابت من رحلة حياتنا... وكأن أرواحنا منذورة للعذاب والشقاء...
أيّنا ذهبنا يدركنا الموت... وبالرغم من ذلك كله لا يمكن لأي قوة

في العالم أن تسلبنا حق العودة إلى الوطن... بل كان علينا أن نلجأ إلى المجهول ريثما ينظر في أمرنا...

انتظرنا حلول المساء، ما أن هدأ ضجيج الحرب قليلاً حملت طفلي الصغير ورد على ظهري، وظل طوال رحلتنا محمولاً، فجسده الهزيل لا يقوى على تحمل مشقة ما ينتظرنا، غادرت المخيم تاركاً خلفي جثة زوجتي التي تركتنا في بداية الطريق وأبت أن تكمله معنا، غادرنا دون أن نودعها، ودون أن أدفنها حتى، تركتها مكانها مع عشرات الجثث حولها، تركتها وهربت لأنجو بنفسي وبطفلنا. لم أقو على إخبار صغيري ما حلّ بأمه، حتى أنا لم أدرك بعد حجم فقدي وما عايشته مؤخراً، فبعض المصائب قد تأتي لتحجبنا عن مصيبة أعظم وتحمّد تفكيرنا فيها، كان لا بد أن أهرب بطفلي إلى بر الأمان بدلاً من أن أقف منتحباً أبكي على زوجتي لآخر العمر، في الحقيقة لو كنت وحدي لفعلت ذلك، لكن كان عليّ أن أصارع الموت وأفر من جحيم الحرب لأجل ورد، لم يكن قد أتم الخمس سنوات من عمره، ما زال أمامه مستقبل طويل، كان علي أن أبذل كل ما بوسعي لأهبه الحياة التي يستحقها، ظللت طوال الطريق أخبره "سنتعب في بداية الطريق فقط... لنرتاح بقيته".

أما هو فظل طوال الوقت يسألني عن أمه، لم يكن بوسعي أن أجيبه عن سؤال كهذا، ولأول مرة في حياتي وجدت نفسي مجبراً على الكذب عليه، أخبرته أن أمه انشغلت قليلاً وستأتي فيما بعد. كنت قد اتفقت مع بعض الأشخاص بالأمس بأن نغادر الحدود، ونفرّ بعيداً عن ويلات الحرب والاضطهاد، فتلك الحدود الزائفة هي من اختلاق البشر، رسمها بعض الطغاة ليضموا الأرض لملكهم والسكان كعبيد فيها، في الحقيقة نحن ننتمي إلى كل ذرة تراب في هذا الكوكب، الأرض ليست حكراً على أحد، فالوطن عند الفجائع قد يصبح حيث الأمان لا حيث ننتمي، حيث نحيا بسلام لا حيث نموت كسرب نمل تدوسه قدم بشرية قادرة. كان الجو مائطراً، وقد اختلطت قطرات المطر مع التراب الممزوج بالدماء فكانت رائحة الموت تلاحقنا أينما ذهبنا...

عندما حلّ المساء بتنا وحدثنا في ظلمات الليل والبر، نرتجف رعباً من عويل الأشباح، مددت بصري عبر الظلام باحثاً عن مكان أوي إليه أنا وطفلي، أمضينا ليلتنا مستندين إلى صخرة كبيرة، ظللت أدحرجها حتى استقرت في مكان ثابت، تملكنا الذعر ليلتها، ففي الأمس هربت بطفلي من صوت مدافع وقذائف الحرب لنستقر في

ليلتنا هذه في العراء دون جدار يحمينا من وحوش البر، أو يحجب
عنا صوت عواء الذئاب المرعب التي تنتظر هبوط الظلام باحثة عن
وجبة لها، ربما ستميز عن بُعد رائحة الدم المتخثر على ركبتني.
-أبي... هل عادت أمي؟؟ قالها ورد بحزن.

لم أكن بعد أمتلك إجابة عن سؤاله، فقد كنت استمع لأسئلته
وأجيبه عليها لكنني عجزت عن هذا السؤال، حذق في وجهي قليلاً
ينتظر مني أن أجيبه ثم طأطأ رأسه، وكان يبتسم بحزن، فكرت ملياً
بكذبة، عصرت رأسي باحثاً عن جواب مناسب لطفل في عمره.
-أمك الآن في مكان آمن جداً.

-هل ذهبت إلى الجنة؟

-!!!!!!

أعياني جوابه... وأوجعتني كلماته... من الصعب الكذب
على الأطفال، هم يدركون جيداً متى نكذب ومتى نقول الحقيقة،
شعرت برغبة ملحة للبكاء فقد أمسكت نفسي عن التفكير في
ما حصل بالأمس ودربت نفسي على النسيان لأمحو صوراً من
ذاكرتي، ففي بعض الأحيان نجبر أنفسنا على النسيان لنكمل، لكن
كلمات طفلي أعادتني إلى اللحظة التي سقطت فيها زوجتي شهيدة

على الأرض، تذكرت أنفاسها الأخيرة... نظراتها الموجعة... أنينها
القاتل... كلماتها التي لم تتمها وخرجت معها روحها...

رحلت دون أن أودعها... وتركتني للوعة الحنين والفراق... لم
أتمكن من منحها لحظة وداع تناسب الموقف... رحلت واقتطعت
جزءاً كبيراً من قلبي كانت قد احتلته... وددت لو يتوقف عمري
بين يديها متأملاً نظراتها التي أدرك أنني سأحرم منها... نظرة واحدة
لدهر كامل لعلها تجعل سماء الفراق تتضاءل وتنكمش...

زوجتي المسكينة لم تكن قد أتمت التاسعة والعشرين ربيعاً من
عمرها، ويلمح البصر فارقت الحياة وأصبحت في عداد الأموات،
إن كان هناك عداد للأموات، فمن الصعب إحصاء عدد وأسماء
الشهداء، فقد كانوا يتساقطون بعدد قطرات المطر مع هذا الشتاء
المؤلم.

ترى هل ستسامحني؟ فقد حرمتها من رؤية صغيرنا ورد في
دقائقها الأخيرة من هذه الحياة، خفت أن ينهار مثلي أو أن أفقده
هو الآخر، بل حتى لم أدفنها أو أصلي عليها، تجردت من إنسانيتي
في تلك اللحظات ولبست قناعاً زائفاً وتظاهرت بالقوة لأنجو
بنفسي وبطفلي، فامتحانات الحياة تظهر لنا صفات لم نكن نظن

أنا نمتلكها، لقد كنت وقتها لثيماً جداً... أنا نياً لأبعد الحدود.

-حان وقت النوم. قلتها مصطنعاً الغضب.

تكور ورد في حضني، والتحف قميصي ليقه من برد الليل،
أغلقت آذانه بأصابعي كي ينعم بليلة هادئة، تحسست شعره الذهبي
وبشرته الشاحبة، كان طفلاً وسيماً يحمل من جمال أمه الكثير، هو
لم يدرك بعد معنى أن يصبح يتيم الأم، كيف سيعيش باقي حياته
دونها، ترى هل للأب أن يعوض دفء وحنان الأم، لا أدري إن
كنت سأقدر على ملء مكانها أو أن أعوضه عنها.

لقد ملئت ذاكرته بتفاصيل لا تنسى، وأوجاع غيرت مجرى
حياته للأبد، بات يحمل أعباءً اجتاحت طفولته مبكراً... لو كان
بوسعي أن أحمل تلك الأثقال عنه وأن انتزع ذاكرة الخوف منه،
وأن أنتشل من أعماقه صور رحلة الموت هذه، وأجمد كل ذلك
الألم...

حاولت أن أنام، لأشحن جسدي المنهك بجرعات من الطاقة،
ففي بداية الطريق كنت ممتلئاً بالطاقة لكن سرعان ما خارت قواي،
حاولت أن أقفز في نومي إلى مستقبل جميل، فالأحلام هي ذلك
العالم الآخر الذي نهرب إليه حتى لا نموت همماً من قسوة الواقع.

استيقظنا قبيل الفجر، ناولت طفلي شيئاً يسيراً من الطعام ليسكن أصوات أمعائه الخاوية وانطلقنا باكراً قبل أن تصل إلينا قطعان الوحوش، أو أن تهاجمنا قذائف القصف العشوائي، كان علينا أن نفرّ قبل فوات الأوان.

كوني لاجئاً فلسطينياً أي بنظر العالم ”لاجئ بلا وطن“، فلم أكن أمتلك قراراً غير الهجرة بطريقة غير مشروعة، وكان عليّ أن اختار سمسار تهريب مجرب، واهتديت إلى بعضهم بعد أن تمكنت من تأمين المال اللازم لذلك، كنت قد سمعت الكثير من قصص المهاجرين المفزعة التي تقشعر لها الأبدان، فقد كانوا يفرون من جحيم الحرب إلى جحيم آخر... وغالباً ما يلقي الأطفال حتفهم أثناء تلك المغامرات بأبشع الصور، فقد ارتسخت في ذاكرتي صوراً لأطفال ابتلعهم البحر وقذفهم جثثاً نحو الشواطئ، أو اختنقوا في شاحنات النقل وغرف التبريد، أو وقعوا بين يديّ مهربين يخطفون الأطفال ليستغلّوهم بأبشع ألوان العذاب، لكن بالرغم من كل شيء كان علينا أن نجازف وأن نمضي في رحلة البقاء على قيد الحياة.

أمضينا ساعات طوال في الطريق وتنقلنا من مكان إلى آخر... وكلما ظننا أننا فررنا من الموت كان يعترض سيرنا ويفاجئنا متقمصاً

وجهاً آخر... توجهنّا إلى أبعد نقطة في هذا الوطن، وصلنا إلى آخر حدوده على شاطئ البحر بعد عناء طويل ورحلة عذاب صعبة، نظرت خلفي إلى الوطن الذي احتضنني، تأملت مودعاً، ترى ما الذي تخبئه لنا رحلة البحر الطويلة... هل سنكون أنا وطفلي طعماً للأسماك ووحوش البحر... إن متنا هل سيتمكنوا من انتشال جثتنا.. ولعلنا قد نصل إلى ما نظنه شاطئ الأمان ثم يبدأ إطلاق النار علينا من قبل حرس السواحل والحدود الذين يوصدون الأبواب بوجه اللاجئين...

اصطف الناس من مختلف الأصناف منتظرين القوارب الغير شرعية لتقلهم إلى وجهات مختلفة، فالحرب لا تميز أحداً، كل الناس فيها سواسية، وبمثابة وجبة دسمة لها، فترى الغني والفقير... القوي والضعيف... الرجال والنساء... الأطفال والكهل كلهم فروا إلى نفس الوجهة، وذات الهدف، فقد سلبتهم الحرب كل شيء.

لم أكن أحمل أية أوراق ثبوتية، لم أعد بحاجة إلى أوراق لأثبت لأي كان بأنني إنسان، فلو مات واحد منا لن يكثر أحد، وسأظل بنظرهم لاجئ بلا وطن.

ظل ورد طوال الوقت يسألني عن أمه ويبحث عنها بين أكوام الناس التي اصطفت، كان يقف إلى جانبي مرعوباً منكمشاً، وكان يقف أمامنا عجوز مخيف المنظر رث الملابس شعره أشعث، ظل يتابعنا بعينه الجاحظتين، ويتأمل ورد تارة، وتارة يحدق في حقيبتنا الصغيرة التي وضعت فيها شيئاً من الماء والطعام، أدوية شبه منتهية الصلاحية، مصباح، سترة نجاة، وجزءاً من المال بعد أن وزعت الباقي في جيبي وفي جوربي، أطبقت يدي على يد طفلي، ورحت أتأمل وجوه الغرباء من حولي، حدقت في عيونهم، كان بإمكانني التخمين بماذا يفكروا، وحاولت اختلاق قصة لكل منهم، على يميننا كانت تقف امرأة بترت يدها وكان أطفالها الخمسة يلتصقون بها كصغار قطة أنجبتهم حديثاً، وإلى جوارنا كانت تجلس شابة في عقدها الثالث، ملامح وجهها تكسوها الجمود، ظلت جاثمة مكانها تحني رأسها بين يديها بصمت، كانت تنظر إلى السماء ربما لتعانق أرواح من ودعتهم في الحرب.

ظللنا ننتظر القارب لساعات طوال، وعندما وصل أول قارب، الذي كان من نصيب الأغنياء فقط، بحثت جيداً عن حقيبتنا فقد اختفت كما اختفى ذلك العجوز ذو العيون الجاحظة، فاضطررنا

لانتظار القارب التالي المخصص للفئة المتوسطة والفقيرة.
وأخيراً قد وصل قارب خشبي مهترئ، على متنه رجال ذو
أجساد ضخمة وملامح مخيفة، استقبله جميع الناس دون أن
يودعوا خلفهم وطنهم، الجميع همه أن يؤمن لنفسه ولأسرته مكان،
أخذ المهربون يقذفون بالناس نحو المركب كما يقذفون بالحقائب
والأمتعة، محظوظ من ينجو دون أن يصاب بأية كسور، لا أحد منا
يعترض أو يجادلهم إنها معركة خاسرة، ركبنا وتكدس الناس فوق
بعضهم كحمل ثقيل من البضاعة، نحن هنا لا شيء نتكوم كقطيع
من الأغنام، كيف للحرب أن تسلبنا بشريتنا وكرامتنا!.

عندما صرنا في عرض البحر حاصرتنا الأمواج... هبت
عاصفة هوجاء وراحت تضرب بالقارب.. وكاد المركب يغرق
مرات عدة... شعرنا بالموت الوشيك... فقد كان شبح الموت
يترصدنا من جميع الاتجاهات... يبدو أننا فررنا من الموت على
أرض الوطن، لنموت غرقى في وسط المحيط، قد يبدو كعقاب
قاسي لمن ترك وطنه...

دخل الماء إلى جوانب القارب، وكان منظر الناس البائس من
حولنا تقشعر له الأبدان، وترتعد له القلوب... قفز نفر منا إلى المياه

وظل البعض مكانه جاثماً ينتظر الموت، قررت أن أقفز أنا وطفلي، إنها أفضل طريقة كي يتعلم السباحة، كانت المسافة بضعة كيلو مترات، لكن الطفل قد يرى فيهن الهاوية، جسده الصغير أضعف من أن يحتمل برودة المياه القارصة، مددت أصابع قدمي لأتحسس برودة الماء، كان يلسع كقطع من الجليد، ومع ذلك نزلت أنا وطفلي إلى عرض البحر، فمواجهة الموت أسهل من انتظاره.

كان يطفو على الماء لوح خشبي على بعد بضعة أذرع مني، مددت يدي اليسرى لأمسك به، وأطبقت ذراعي اليمنى على صغيري حتى كدت أخنقه لحرصى عليه من الغرق، تشبثنا به جيداً وصنعنا شيئاً من التوازن... ظللنا نسبح قرابة الساعتين في ظلمات البحر، وكنت أتوقف من حين لآخر لألتقط أنفاسي وأتفقد أنفاس طفلي الصغير الذي غاب عن الوعي.

-تماسك كدنا نصل... لم يتبق إلا القليل... لا تتركني كما تركتنا أملك.

فقدت الإحساس بأصابعي ثم فقدت نبض صغيري، أجهشت في نوبة من البكاء، وحجبت دموعي الطريق أمامي، لم أعد أبصر جيداً، ليس من العدل أن أخسر ورد في نهاية الطريق...

وصلنا إلى الشاطئ، حاولت أن أنعش نبضه وأنفاسه لكن دون جدوى...

انطرحت على الأرض باكياً رددت دعاء ذي النون ثلاثاً...
يا رب لقد أخرجتنا من ظلمات الحرب، وثانية من ظلمات البحر، يا من لا يعجزه شيء احفظ صغيري...
في مشهد شهدت له كل الجمادات... وصمتت فيه الأشجار حزناً... وسكنت أمواج البحر... وراحت تغزف الرياح على أغصان الشجيرات سيمفونية حزينة... حتى الطيور سكنت وراحت تُؤمِّن على دعواته...

شق سكون الغابة أنين خافت راح يردد:

-أبي... هل عادت أمي؟

للنشر والتوزيع



وإني يا أمي أحمل خطأً تحت عيني تماماً كالذي ارتسم على
وجهك منذ أمدٍ بعيد .. كنت أصدق فيه في صغري وأحدث نفسي:
هل سأكبر وأصبح عجوزاً بعمر أمي .. لكن ذاك الخط اجتاح مقلتي
مبكراً .. سرق شبابي وسلب طفولة عيني .. سلب الأمل الذي ما
كان يفارقني .. حتى تلك الدمعة سلبها .. لم أعد قادر على البكاء
أكثر .. أنا الذي كانت تبكيني أصغر الأشياء .. وكانت دموعي سخية
بحجم الوديان والبحار .. لكن تلك الدموع جفت .. وتلك البحار
انضبت .. وغطى السواد محجري ..

أماه الأيام كفيلة بأن تغيرنا ..

أماه .. اشتقت لوجهك .. لصوتك .. دعواتك التي لم تفارقني
يوماً .. أحن إلى صدرك .. لسماع صوتك .. وحتى لدمعتك ..
أدرك أن الفرح مؤجل في حياتك إلى أن يكتب الله لنا
اللقاء .. الأيام تمر ببطء .. وأعلم أنك تحصين الشهور والأيام تماماً
مثلي .. وأدرك جيداً أنك أضعف من أن تحتلمي فراقي ..
اشتقت لدروس الرياضيات المملة .. لتوبيخ أستاذي ومعاقبته
لي كل يوم .. أشعر بالذهول كيف أصبح فجأة يحبني .. وأنه هو
أيضاً بانتظار عودتي ..

اشتقت لرفاق الحى.. للملعب.. للكرة.. وأعلم جيداً أنَّ اللعبة
توقفت نتيجة تغيب أحد اللاعبين.. ما من لاعب احتياط سيسد
مكاني.. أصبحت اللعبة مملة وربما موجعة بالنسبة لهم..
اشتقت لطفولتي.. كراسة رسمي.. صندوق ألعابي.. سريري
ووسادتي..

اشتقت للوطن.. لتقبيل ترابه.. واستنشاق عطر هوائه..
اشتقت لنور الشمس.. فهنا عالم ممتد من السواد.. لا شيء من
النور سوى ذلك المتسرب من النافذة الصغيرة البعيدة..
وجدت نفسي مقرناً بالأصفاد.. مكبلاً بأبشع الشتاء.. تُسلب
طفولتي مني.. وانتهى بي الأمر أقذف في زنزانة باردة وموحشة..
ما من أحد يشاركني إياها هي ورائحتها القاتلة.. ما من أحد يؤنس
وحدتي.. ما من أحد يأبه للجسد الصغير المترامي في صدر هذه
الزنزانة..

الشهور الأولى من الاعتقال كانت الأصعب.. استيقظ ليلاً..
أبحث عنك ولا أجدك.. أدفن وجهي في وسادتي.. أغرق بنحيب
ممزق.. لكن بمرور الوقت اعتدتُ الأمر قليلاً..

كبرت في زنراتي .. ولم أعد أبكي .. خاتني دموعي وأنا أحوج
ما أكون إليها ..

كبرت في زنراتي وصرت رجلاً .. فالمعاناة تجعلنا ننضج قبل
أواننا ..

كبرت .. ولم تعد قضبان السجن تخيفني .. ولم تعد صرخات
سجاني تفزعني ..

كبرت .. ولا زلت بحاجة إلى حضنك ..
غداً .. وقد تأخر الغد .. سأكون بانتظارك في المحكمة ..
ستهرعين إلي كعادتك .. وتضميني لصدرك وكأنها المرة الأخيرة ..
ثم تخسريني من جديد ..

لا تقلقي إن لاحظتِ اصفرار وجهي .. ذبولي وشحوبي
.. وخسارة وزني .. أنا بخير كل ما في الأمر أنني اشتقت لكي ..
واشتقت لرؤية وجهك .. حين أراك يختفي العالم كله من أمامي ..
تتضاءل كل الوجوه وتنكمش أمام وجهك .. ولا أبصر سواك ..

عديني بأنك لن تبكي .. أدرك جيداً بأنك في الغد لن تسمعي ما
يسرُّك .. وأعلم بأنه على المرء أن يتحلى بالأمل دائماً .. لكن أرجوك
تخلي عن الأمل فقط في الغد .. ترقبي الأسوأ .. ستكون الجلسة

الحاسمة.. وهنا ما من عدالة.. سيقطعوا سنين طويلة من عمري
لأقضها في ظلام السجن.. سأمضي ما تبقى من طفولتي وشبابي
بعيداً عنك.. لكن عزائي الوحيد أن ذلك كله لأجل الوطن.. إنها
ضريبة حب الأوطان..

سيكون بوسعنا أنا وأنتِ تحمل هذا كله.. فإله لن يكلف
نفساً فوق طاقتها.. سأخرج يوماً من بين هذا الركام.. وأكسر قفل
سجني متصراً على جلادي.. وأنفض عن نفسي غبار سنوات
قضيتها في الأسر لأعود طفلاً بين يديك من جديد..
أماه.. كوني على ثقة بأنه ذاته الطفل الذي زجابه في الزنزانة
ليردعوا باقي الصبية عن حمل الحجر.. هو ذاته من سيخرج من هنا
رجلاً ويحرر الوطن..

ابنك المحب

للنشر والتوزيع

المكان: بقعة مظلمة تشبه الجحيم

الزمان: يوم توقف العمر عند طفولتي

